

أَحْكَامُ الصَّيَّامِ وَفَاسِقُهُ
فِي ضَوْءِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ

تأليف

الدكتور الشيخ مصطفى السباعي

الطبعة الثالثة

259 314-17

المكتب الإسلامي

طبع بأذن خطي من ورثة المؤلف
رحمه الله

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى ١٣٧٦ دمشق

الطبعة الثانية ١٣٩٢ بيروت

الطبعة الثالثة ١٣٩٧ بيروت

بيروت: ص.ب (٣٧٧-١١) هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقيًا: إسلاميًا
دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقيًا: إسلاميًا

احكام الصيام وفلسفته
في ضوء القرآن والسنة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ان الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونعوذ بالله من شرور
أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا
هادي له ، وأشهد أن لا إله الا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد ، فان شهر رمضان ، موسم عظيم من مواسم الخير ، تصفو
فيه النفوس ، وتقرب القلوب من خالقها ، وتفتح فيه أبواب الجنة ، وتكثر
دواعي الخير ، أنزل الله فيه القرآن الكريم على نبيه العظيم ، هدى
للناس ، وفرقاً بين الحق والباطل ، وتبيناً لسبيل الخير ، وتمييزاً لطرق
الضلالة والشر ... وجعله دستوراً خالداً الى يوم القيامة ، فمن تبع
هداه فاز ونجا ، ومن أعرض عنه ولم يأت به بأمره ، ويستنير بنوره ،
ويحل حلاله ، ويحرم حرامه ، فقد ضل سعيه في الدنيا ، وكان هلاكه في
الآخرة جزاء وفاقاً لما كسبت يده .

وقد فرض الله صيامه ، وجعله سبحانه له ، وتكفل بمثوبة
الصائم ، وأنعم بوعده ، وهو أكرم الأكرمين .

ولا بد في العمل الصالح ليكون مقبولا من أن يكون المرء فيه على
بينة من أمره ، يعرف حدوده ، وأحكامه ، وحكمه ، ليمضي فيه على
النهج السوي الذي طلبه الله تعالى من عبده ، وليندفع فيه بكل رغبة
وعزم .

وهذا لا يكون الا بمعرفة ما أنزل الله فيه من آيات بينات ، وما قال
فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحاديث شريفة .

وقد اجتهد علماء هذه الأمة من السلف الصالح ، ومن تبعهم الى
يومنا هذا بتبيان أحكام الصيام والقيام ، وخصوه بالمواعظ الحسنة
والمرغبات الكثيرة ، جزاهم الله عن المسلمين كل خير . وكان من
آخرهم أستاذنا العالم المجاهد الشيخ مصطفى السباعي - رحمه الله -
قد أذاع وكتب جملة من الأحاديث والمقالات ، يبين فيها أحكام الصيام ،
ويفسر بعض آياته وشرح بعض أحاديثه ، وألقى كلمة عن هديه صلى الله
عليه وسلم في العيدين وصدقة الفطر والزكاة والاسراء والمعراج ... الخ .
فكان من ذلك هذا الكتاب وانه كتاب جامع بين الموعظة والفقه ، بأسلوبه
المعروف جزاه الله أحسن الجزاء ، ورحمه اتم الرحمة ، انه خير مسؤول .

وسبق لهذا الكتاب أن طبع في دمشق سنة ١٣٧٦ ثم جددنا طبعه
بالاشتراك مع دار القرآن الكريم سنة ١٣٩٢ . وقد نفذت نسخه واشتد
الطلب عليه منذ سنة ونيف ، غير أن الظروف التي سادت لبنان حالت
بيننا وبين أي اتصال مع الورثة لاعلامهم ، والآن وقد يسر الله سبحانه
ذلك ، وفرج عنا - بفضلہ وكرمه - ما كنا فيه ، فانه يسرنا أن نقدم هذه
الطبعة راجين الله سبحانه أن يجعله عملا مقبولا ، وأن يحسن مثوبة
المؤلف ويغفر لنا وله الخطأ والزلل ، وينفع هذه الأمة بتراث سلفها الصالح ،
لتعود لنا العزة التي فقدنا ، والمجد الذي أضعنا ، انه خير مسؤول ،
والحمد لله رب العالمين .

بيروت غرة ربيع الثاني ١٣٩٧

زهير الشاويش

القسم الأول

- | | |
|-------|--|
| ١٠-٩ | ١ - آيات الصيام |
| ١٧-١١ | ٢ - أحاديث الصيام |
| ١٩-١٨ | ٣ - أحاديث العيد |
| ٢٢-٢٠ | ٤ - هديه صلى الله عليه وسلم في الصيام والعيد |
| ٢٥-٢٣ | ٥ - أحكام الصيام |
| ٢٧-٢٦ | ٦ - صدقة الفطر |

آيات الصيام

قال الله تعالى في سورة البقرة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) * أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ ، فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ، فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ، وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ، فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ، وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) ﴾ . .

﴿ أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ، عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ

فَتَنَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ، فَالْآنَ بَاشِرُوهُمْ ۖ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ
اللَّهُ لَكُمْ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ
الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ، ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُمْ
وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ، تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ
يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ .

• • •

أحاديث الصيام

١- في فضل الصيام :

• عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ ^(١) » .

• عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ، وَعَرَفَ حُدُودَهُ ، وَتَحَفَّظَ مَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَحَفَّظَ ، كَفَّرَ مَا قَبْلَهُ ^(٢) » .

• عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أُعْطِيَ أُمِّي فِي شَهْرِ رَمَضَانَ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي ، أَمَّا وَاحِدَةٌ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ يَنْتَظِرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ وَمَنْ نَظَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ لَمْ يَعْذِبْهُ أَبَدًا . »

وأما الثانية : فَإِنْ خُلُوفَ أَفْوَاهِهِمْ (أي رائحة أفواههم) حِينَ يَمْسُونَ أَطْيَبَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ .

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود .

(٢) رواه البيهقي ، وابن حبان في صحيحه .

وأما الثالثة : فإن الملائكة تستغفر لهم في كل يوم وليلة .

وأما الرابعة : فإن الله عز وجل يأمر جنته فيقول لها : استعدي وتزيني لعبادي أوشك أن يستريحوا من تعب الدنيا إلى داري وكرامتي .

وأما الخامسة : فانه إذا كان آخر ليلة غفر الله لهم جميعاً . فقال رجل من القوم : أهى ليلة القدر؟ فقال : لا ، ألم تر إلى العمال يعملون ؛ فإذا فرغوا من أعمالهم وفوا أجورهم ^(١) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر . » ^(٢) .

عن كعب بن عجرة رضي الله عنه ، قال ، قال رسول الله ﷺ : « بُعِدَ (أي أبعد الله عن رحمته) من أدرك رمضان فلم يغفر له . » ^(٣) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال ، قال رسول الله ﷺ : « كل عمل ابن آدم يضاعف ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال الله تعالى : إلا الصوم فانه لي وأنا أجزي به ، يدع شهوته وطعامه من أجلي ، للصائم فرحتان : فرحة عند فطره ، وفرحة عند لقاء ربه ، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك . » ^(٤) .

عن أبي مسعود الغفاري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لو يعلم العباد ما رمضان ، لتمنت أمتي أن تكون السنة كلها رمضان . » ^(٥) .

(١) رواه البيهقي .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه الحاكم .

(٤) أخرجه البخاري ومسلم .

(٥) رواه ابن خزيمة في صحيحه .

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا تُرد دعوتهم : الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب : وعزني لأنصرتك ولو بعد حين . » (١)

ب - في ليلة القدر :

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » (٢) .

• عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : دخل رمضان فقال رسول الله ﷺ : « إن هذا الشهر قد حضركم ، وفيه ليلة خير من ألف شهر ، من حُرِّمها فقد حرم الخير كله ، ولا يحرم خيرها إلا محروم » (٣) .

• عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : أخبرنا رسول الله ﷺ عن ليلة القدر ، قال : « هي في شهر رمضان : في العشر الأواخر ، ليلة إحدى وعشرين أو ثلاثة وعشرين أو خمس وعشرين أو سبع وعشرين أو تسع وعشرين أو آخر ليلة من رمضان ، من قامها احتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » (٤) .

ج - افطار رمضان من غير عذر :

• عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « من أفطر يوماً من رمضان من غير رخصة ولا مرض لم يقضه صوم الدهر كله وإن صامه » (٥) .

(١) رواه أحمد والترمذي .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) رواه ابن ماجه .

(٤) رواه أحمد .

(٥) رواه الترمذي .

٥ - في الاعتذار المبيحة للإفطار :

* عن جابر رضي الله عنه ، قال : خرج رسول الله ﷺ عام الفتح إلى مكة في رمضان ، حتى بلغ « كراع الغميم » ^(١) فصام وصام الناس ثم دعا بقدر من ماء فرفعه حتى نظر الناس ثم شرب ، فقيل له بعد ذلك : إن بعض الناس قد صام ، فقال : أولئك العصاة ، أولئك العصاة ^(٢) .

* عن جابر رضي الله عنه ، قال : كان النبي ﷺ في سفر فرأى رجلاً قد اجتمع عليه الناس ، وقد ظلل عليه ، فقال : « ماله ؟ » فقالوا : رجل صائم ، فقال رسول الله ﷺ : « ليس البر أن تصوموا في السفر » ^(٣) .

* عن عائشة رضي الله عنها قالت : سألت حمزة بن عمرو الأسلمي رضي الله عنه ، رسول الله ﷺ عن الصوم في السفر - وكان كثير الصيام - فقال : « إن شئت فصم وإن شئت فأفطر » ^(٤) .

* عن رجل من بني عبد الله بن كعب بن مالك اسمه أنس بن مالك قال ، قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى وضع شطر الصلاة عن المسافر وأرخص له في الإفطار ، وأرخص فيه للمريض والحلبى إذا خافنا على ولديهما » ^(٥) .

* عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يَطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ ﴾ ، كان من أراد أن يفطر ويفتدي حتى أنزل الله : ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ ، فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح ، ورخص فيه للمريض والمسافر ، وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام ^(٦) .

(١) هو موضع على مسافة ثلاثة أميال من عسفان بين مكة والمدينة .

(٢) رواه مسلم والترمذي .

(٣) و (٤) رواه البخاري ومسلم .

(٥) رواه أصحاب السنن .

(٦) رواه أحمد .

هـ - في آداب الصائم :

• عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الصيام جنة (أي وقاية من الأخلاق الرديئة) فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فإن شاتمه أحد أو قاتله ، فليقل : إني صائم ، إني صائم » ^(١) .

• عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال ، قال النبي ﷺ : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » ^(٢) .

• عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال ، قال رسول الله ﷺ : « ليس الصيام من الأكل والشرب إنما الصيام من اللغو والرفث . فإن سابك أحد أو جهل عليك فقل إني صائم ، إني صائم » ^(٣) .

و - في المفطر ناسياً :

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال ، قال رسول الله ﷺ : « من نسي وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه ، فإنما أطعمه الله وسقاه » ^(٤) .

ز - في السحور :

• عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « تسحروا فإن في السحور بركة » ^(٥) .

• عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال ، قال رسول الله ﷺ : « تسحروا ولو بجرعة ماء » ^(٦) .

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه البخاري .

(٣) رواه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما .

(٤) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي ومالك .

(٥) رواه ابن حبان في صحيحه .

(٦) رواه أبو داود والترمذي .

ح - في الإفطار على التمر :

• عن سلمان بن عامر الضبي رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر فإنه بركة ، فإن لم يجد تمرأ فالماء ، فإنه طهور » (١) .

ط - في تعجيل الإفطار :

• عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر » (٢)

• عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال ، قال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل : إن أحبَّ عبادي إليَّ أعجلهم فطراً » (٣) .

ي - في تأخير السحور :

• عن يعلى بن مرة رضي الله عنه قال ، قال رسول ﷺ : « ثلاثة يحبها الله : تعجيل الإفطار ، وتأخير السحور ، وضرب اليدين أحدهما على الأخرى في الصلاة » (٤) .

ك - في اطعام الصائم :

• عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « من فطر صائماً كان له مثل أجره غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيء » (٥) .

ل - في صلاة التراويح :

• عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : كان رسول الله ﷺ يرغب

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي .

(٣) رواه أحمد والترمذي .

(٤) رواه الطبراني في الأوسط .

(٥) رواه الترمذي والنسائي .

في قيام رمضان من غير أن يأمر فيه بعزيمة ، فيقول : « من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » (١) .

* عن عائشة رضي الله عنها : ان النبي ﷺ صلى في المسجد (أي قيام رمضان) فصلى بصلاته ناس ، ثم صلى الثانية فكثرت الناس ، ثم اجتمعوا في الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ فلما أصبح قال : « رأيت الذي صنعتم ، فلم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيت أن تفترض عليكم » وذلك في رمضان (٢) .

* عن عائشة رضي الله عنها : انه ﷺ ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة (٣) .

* عن ابن عباس رضي الله عنه : كان يصلي في رمضان من غير جماعة عشرين ركعة والوتر (٤) .

* عن عبد الرحمن بن عبد القاري قال : خرجت مع عمر بن الخطاب في رمضان إلى المسجد ، فإذا الناس أوزاع متفرقون ، يصلي الرجل لنفسه ، ويصلي الرجل فيصلي بصلاته الرهط ، فقال عمر : اني أرى لو جمعت هؤلاء على قاريء واحد لكان أمثل ، ثم عزم فجمعهم على أبي بن كعب ، ثم خرجت معه ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم ، فقال عمر : نعمت البيعة هذه (٥) .

* عن يزيد بن رومان قال : كان الناس يقومون في زمان عمر بن الخطاب في رمضان بثلاث وعشرين ركعة (٦) .

* * *

-
- (١) رواه الجماعة .
(٢) رواه البخاري ومسلم .
(٣) رواه البخاري وغيره .
(٤) رواه البيهقي .
(٥) رواه البخاري ومالك .
(٦) رواه مالك في الموطأ ، وفيه انقطاع .

أحاديث العيد

أ - في احياء ليلة العيد :

عن أبي أمامة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « من قام ليلتي العيدين محتسباً لم يمّت قلبه يوم تموت القلوب » (١) .

ب - في التجميل للعيد

• عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يلبس برده الأحمر في العيدين وفي الجمعة (٢) .

ج - الافطار قبل الصلاة

• عن أنس رضي الله عنه ، قال : كان النبي ﷺ لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل تمرات ويأكلهن وتراً (٣) .

(١) رواه ابن ماجه ورواه الطبراني عن عبادة بن الصامت .

(٢) رواه ابن خزيمة .

(٣) رواه البخاري وأحمد .

د - في التكبير صبيحة العيد

* عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان إذا غدا إلى المصلى كبر فرفع صوته بالتكبير ، وفي رواية كان يغدو إلى المصلى يوم الفطر إذا طلعت الشمس فيكبر حتى يأتي المصلى ثم يكبر بالمصلى حتى إذا جلس الإمام ترك التكبير (١) .

هـ - في صلاة العيد

* عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : كان رسول الله ﷺ وابو بكر وعمر يصلون العيد قبل الخطبة (٢) .

* عن سعد بن أوس الأنصاري عن أبيه رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم عيد الفطر وقفت الملائكة على أبواب الطرق فنادوا : اغدوا يا معشر المسلمين إلى رب كريم يمن بالخير ثم يثيب عليه الجزيل ، لقد أمرتم بقيام الليل فقمتم ، وأمرتم بصيام النهار فصمتم وأطعتم ربكم ، فاقبضوا جوائزكم ، فإذا صلوا نادى مناد : ألا إن ربكم قد غفر لكم فارجعوا راشدين إلى رحالكم فهو يوم الجائزة » (٣) .

* * *

(١) رواه الشافعي ، وقد أخرج الطبراني عن أبي هريرة والبيهقي والحاكم عن ابن عمر مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ما يؤيده .

(٢) رواه الجماعة إلا أبا داود .

(٣) رواه الطبراني في الكبير من رواية جابر الجعفي ، وروى البيهقي وابن حبان ما يؤيده .

هدية صلى الله عليه وسلم في الصيام والعدين (١)

أ - عبادته وسخاؤه :

• كان من هديه ﷺ في شهر رمضان الإكثار من أنواع العبادات ، فكان جبريل عليه الصلاة والسلام يدارسه القرآن في رمضان ، وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة، وكان أجود الناس ، وأجود ما يكون في رمضان . يكثر فيه من الصدقة والإحسان وتلاوة القرآن والصلاة والذكر والاعتكاف . وكان يخص رمضان من العبادة بما لا يخص غيره به من الشهور ، حتى أنه كان ليواصل فيه أحياناً (يواصل صوم الليل بالنهار) . ليوفر ساعات ليله ونهاره على العبادة ، وكان ينهى أصحابه عن الوصال .

ب - فطره قبل الصلاة :

• وكان ﷺ يفطر قبل أن يصلي ، وكان فطره على رطبات إن وجدها ، فإن لم يجدها فعلى تمرات ، فإن لم يجد فعلى حسوات من ماء .

(١) نذكر في هذا الباب موجزاً مما كتبه الإمام ابن القيم رحمه الله في «زاد المعاد» .

ج - دعاؤه عند الإفطار :

* ويذكر عنه عليه السلام أنه كان يقول عند فطره : اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت . وروي عنه أنه كان يقول إذا أفطر : « ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله تعالى » .

د - الفطارة في السفر :

* وسافر رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان فصام وأفطر ، وخيّر الصحابة بين الأمرين ، وكان يأمرهم بالفطر إذا دنوا من عدوهم ليتقوّوا على قتاله ^(١) .

هـ - في العيدين :

* كان صلى الله عليه وسلم يصلي العيدين في المصلى ، ولم يصل العيد بمسجده إلا مرة واحدة . أصابهم مطر فصلى بهم العيد في المسجد . إن ثبت الحديث (وهو في سنن أبي داود وابن ماجه) ، وهديه كان فعلهما في المصلى دائماً .
* وكان يلبس للخروج اليهما أجمل ثيابه ، وكانت له حلة يلبسها للعيدين والجمعة .

* وكان يأكل قبل خروجه في عيد الفطر تمرات ويأكلهن وترأ ، وأما في عيد الاضحى فكان لا يطعم حتى يرجع من المصلى فيأكل من أضحيته .
* وكان يغتسل للعيدين (صح الحديث فيه) .

* وكان يخرج ماشياً ويخالف في طريق الذهاب والإياب ، فيذهب من طريق ويعود من آخر .

* وكان إذا انتهى إلى المصلى أخذ في الصلاة من غير أذان ولا إقامة ولا

(١) استظهر ذلك الإمام ابن القيم - ونقله عن شيخه شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله - إن للجيش أن يفطر في الحضر إذا كان تجاه العدو وفي إفطاره قوة له (١٦١/١) .

قول : « الصلاة جامعة » . ولم يكن هو ولا أصحابه يصلون إذا انتهوا إلى المصلى شيئاً قبل الصلاة ولا بعدها .

* وكان يبدأ بالصلاة قبل الخطبة ، فيصلي ركعتين ؛ يكبر في الأولى سبع تكبيرات متوالية بتكبيرة الإفتتاح يسكت بين كل تكبيرتين سكتة يسيرة ، ولم يحفظ عنه ذكر معين بين التكبيرات ، ولكن ذكر عن ابن مسعود أنه قال : يحمد الله ويثنى عليه ، ويصلي على النبي ﷺ . وكان ﷺ إذا أتم التكبير أخذ في القراءة ، فقرأ فاتحة الكتاب ثم قرأ بعدها : ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ في إحدى الركعتين ، وفي الأخرى ﴿ اقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ ، وربما قرأ فيهما : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ و ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ . فإذا فرغ من القراءة كبر وركع ، ثم إذا أكمل الركعة وقام من السجود كبر خمساً متوالية ، فإذا أكمل التكبير أخذ في القراءة ، فيكون التكبير أول ما يبدأ به في الركعتين ، والقراءة تلي الركوع .

* وكان إذا أكمل الصلاة انصرف فقام مقابل الناس ، والناس جلوس على صفوفهم ، فيسمح لمن يريد الذهاب من غير استماع للخطبة ، ثم يأخذ في وعظ الناس وأمرهم ونهيهم ، ثم يذهب إلى النساء فيعظهن ويذكرهن ويحثهن ، فيتصدقن بالقرط والحاتم والشيء . وكان يكثر من التكبير خلال خطبته .

هذا بعض هديه ﷺ في رمضان والعيدين . رزقنا الله اتباعه ، وأكرمنا باقتفاء آثاره ، وجزاه الله عنا من نبي خيراً .

* * *

أحكام الصيام

وجوب صيام رمضان :

أجمع المسلمون على وجوب صيام رمضان لقوله تعالى ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ . ولقوله عليه الصلاة والسلام « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً » .

شروط وجوبه :

وشروط وجوبه ثلاثة : الإسلام ، والعقل ، والبلوغ ، فلا يجب على غير المسلم ، ولا على المجنون ، ولا على الصبي .

أركانه :

وأركانه ثلاثة :

١ - دخول شهر رمضان برؤية أو حكم حاكم .

٢ - الإمساك عن الأكل والشرب والجماع منذ طلوع الفجر الى غروب الشمس .

٣ - النية : ووقتها قبل طلوع الفجر ، فينوي بقلبه صيام ذلك اليوم محتسباً راغباً في ثواب الله ومثوبته ، وتجزيه نية واحدة عن شهر رمضان كله من غير تجديد النية لكل يوم عند بعض المذاهب .

مفسدات الصيام :

١ - الأكل عامداً ولو مبلغاً قليلاً ، ولو شيئاً غير مغذٍ ولا مفيد .

٢ - الشرب عامداً ولو قطرة .

٣ - تناول كل شيء مغذٍ أو مفيد من دواء أو غيره .

٤ - الجماع ، وكذا الانزال ولو من غير جماع .

مكروهات الصوم :

يكره فعل كل شيء يضعف الصائم كالاحتجام .

أو يعرضه للإفطار ، كتقبيل الرجل زوجته ، وذوق الطعام بلسانه من غير حاجة ، وفتح فمه للغبار .

آداب الصوم :

الصوم عبادة لتهذيب النفس وتقوية الجسم ، وتربية التعاون الاجتماعي ، والشعور بآلام البائسين والفقراء .. ولذلك يندب فيه : كثرة العبادة من صلاة واستغفار وقراءة قرآن .

ويندب فيه : كثرة التصديق ، ومواساة البائسين ، وتفقد الجيران ، ومواصلة ذوي الأرحام .

ويندب فيه : الاكثار من الأعمال المفيدة للمجتمع ، والإقلال من كل عمل لا فائدة منه .

ويحرم فيه كما يحرم في غير الصوم : الغيبة ، والنميمة والكذب ، والخصام ، والتعرض لكرامات الناس . فإن ذلك في غير الصوم حرام ، بغض إلى الله ، فكيف بالصوم وهو عبادة تطهير وتزكية ! .

وقد قال رسول الله ﷺ في أمثال أولئك الذين تصوم بطونهم ولا تصوم جوارحهم عن المعصية : « رب صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش » .

ويقول عليه الصلاة والسلام ينهانا عن أن نقابل إساءة المسيء وبذاءة الشاتم : « الصيام جنة من النار (أي وقاية وحصن) فمن أصبح صائماً فلا يجهل يومئذ ، وإن امرؤ جهل عليه فلا يشتمه ولا يسبه وليقل إنني صائم » رواه النسائي .

وليعلم الصائم أنه إذا كان يرجو بصومه ثواب الله ورضاه ، فإنه في ضيافة الله ورعايته . فما يتحرك بحركة ، ولا يتكلم بكلمة خيرة ، إلا كان في عبادة .. فليحسن الصائم نيته ، وليستكثر من الخير ، وليكثر من الذكر والاستغفار .

* * *

صدقة الفطر

أ - النصوص الواردة :

• عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر من رمضان ، صاعاً من تمر ، أو صاعاً من شعير ، على العبد والحر والذكر والانثى والصغير والكبير من المسلمين .^(١)

• عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ أمر بزكاة الفطر أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة^(٢) .

• عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث ، وطعمة للمساكين ، فمن أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة ، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات^(٣) .

ب - أحكامها :

تجب - عند فقهاء الحنفية - على كل من تجب عليه الزكاة ، عن نفسه

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

(٢) رواه الجماعة إلا ابن ماجه .

(٣) رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم .

وأطفاله ومن تجب عليه نفقته وهو تحت ولايته ، ولا تجب عليه عن زوجته وولده الكبير ، والواجب عندهم نصف صاع من بُرٍّ أو دقيق أو زبيب ، وصاع من تمر أو شعير ، ودفع القيمة أولى إذا كان أنفع للفقراء .

وتجب - عندهم - بطلوع الفجر من يوم الفطر ، فمن مات قبل طلوع الفجر أو ولد بعده لا تجب عليه ، والأولى إخراجها قبل صلاة العيد ، ويجوز تقديمها في شهر رمضان ، ولا تسقط بتأخيرها عن صلاة العيد بل يجب عليه أدائها .

ويجب دفع صدقة الفطر عن كل شخص إلى فقير واحد حتى لو فرقها على اثنين أو أكثر لم يجز لأن المقصود منها هو الإغناء ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « اغنوهم عن المسألة في مثل هذا اليوم » .

وتجب - عند فقهاء الشافعية - على كل من ملك ما زاد عن قوته وقوت عياله في يوم العيد وليلته ، ويخرجها عن نفسه وعن تلزمه نفقته ، فتجب عليه عن زوجته وولده الفقير وخادمه ، وهي عندهم صاع من قوت بلده .

وتجب - عندهم - بغروب الشمس من آخر يوم من أيام رمضان ، فتجب على من مات بعد الغروب ، ولا تجب على من ولد بعده .

القِسمُ الثاني

- | | |
|-------|--------------------------------|
| ٣٧-٣١ | ١ - الوافد الحبيب |
| ٤٥-٣٨ | ٢ - رمضان شهر الحق |
| ٥٢-٤٥ | ٣ - رمضان شهر القوة |
| ٦٠-٥٣ | ٤ - رمضان شهر الحرية |
| ٦٤-٦١ | ٥ - فلسفة الصيام وأسراره |
| ٦٨-٦٥ | ٦ - رمضان شهر المواساة |
| ٧٢-٦٩ | ٧ - أثر العبادة في تربية الامة |
| ٧٧-٧٣ | ٨ - مؤسسة الزكاة |
| ٨٧-٧٨ | ٩ - رمضان يتحدث |
| ٩١-٨٨ | ١٠ - رمضان يودع |
| ٩٧-٩٢ | ١١ - فلسفة العيد |

الوافد الحبيب

ها نحن إزاء دورة جديدة من دورات الفلك ، فبعد أيام معلودات يفد إلينا رمضان بنظامه وأجوائه وشكلياته ، والناس إزاءه أنواع :

فمنهم : من لا يرى فيه أكثر من حرمان لا فائدة منه ، وتقليد ديني لا مبرر له ، وقد تقدمت الحضارة وتطور الفكر الإنساني بحيث لا يسبغ - في زعمه - هذه القيود الدينية الثقيلة ، فهو عازم على الإفطار فيه ، مجاهر بذلك ، مستهزئ من الصائمين ، ساخر بعقولهم وتفكيرهم .

ومنهم : من لا يرى فيه إلا جوعاً لا تتحمله أعصاب معدته ، وعطشاً لا تقوى عليه مجاري عروقه ، فهو عازم على الإفطار ، مستخفٍ فيه الناس ، متظاهر بالصيام أمام من لا يعرفه ، مجاهر به أمام من لا ينكر عليه .

ومنهم : من يرى في رمضان موسماً سنوياً للموائد الزاخرة بألوان الطعام والشراب ، وفرصة جميلة للسمر واللهو الممتد إلى بزوغ الفجر ، والنوم العميق في النهار حتى غروب الشمس ، فإن كان ذا عمل برم بعمله ، وإن كان ذا معاملة ساءت معاملته ، وإن كان موظفاً ثقل عليه أداء واجبه ..

ومنهم : - وهم الأقلون - يرون في رمضان شهراً غير هذا كله ، وأجل

من هذا كله .. يرون فيه دورة تدريبية لتجديد معاني في نفوس الناس من :
الخلق النبيل ، والايثار الجميل ، والصبر الكريم ، والتهذيب الالهي العظيم ..

أما الذين لا يرون في الصيام انسجاماً مع تطور الحضارة فنحن نحيلهم إلى
أطباء الأجسام والنفوس ليحدثوهم عما اكتشفه العلم الحديث من فوائد للصيام
لا يجدها الناس في غيره .

وأما الذين تنهزم عزائمهم أمام جوع الصيام وحرمانه وهم مؤمنون
بفرضيته وقديسيته ، فنحن نذكرهم بأننا نعيش في قلب المعركة الفاصلة في
تاريخ هذه الأمة ، وليس الصيام إلا صبر ساعات على أقل مظاهر الحرمان في
الحياة من طعام وشراب ، فمن انهزم بينه وبين نفسه عن تحمل شدة الصبر
ساعات من النهار ، فسيكون أشد هزيمة بينه وبين أعدائه عن تحمل قسوة
الكفاح والنضال أياماً وشهوراً وأعواماً .. إن المنهزمين في ميدان صغير ليسوا
أهلاً لأن يحرزوا النصر لأمتهم في ميدان كبير . ومن أعلن استسلامه في معركة
نفسية تدوم ساعات ، فقد حكم على نفسه بفقدان أول خلق من أخلاق
المكافحين وهو الرجولة ، ومن عز عليه أن يعيش في جو الرجال فقد أخرج
نفسه من معارك الشهداء والأبطال .

وأما الذين يرون في رمضان جوعاً في النهار ، ومتعة مادية في الليل .. أما
جمهور المسلمين الصائمين فإليهم نوجه هذا الحديث ، وهم الذين نرجو أن
ينفعهم الله بالصيام ، ويثبتهم عليه ، ويجزل ثوبتهم فيه .

إن الأمم كالأفراد تحتاج في حياتها الطويلة إلى فترات من الراحة والهدوء ،
تصلح فيها ما فسد من أوضاعها ، وتجدد ما كاد يبلى من مقوماتها ، وتعالج
ما ساء من شؤونها . وهذه الفترات هي اللحظات الفاصلة في تاريخ الأفراد
والجماعات ، فإن عرفت كيف تستفيد منها ، كانت مفتاحاً لكل خير تناله
في المستقبل ، ولكل نصر تحرزه في المعارك ، ولكل خلود تسجله في التاريخ .

ورمضان هو الفترة الروحية التي تجديفها الجماهير والأفراد فرصة لإصلاح تاريخها.

إن رمضان « محطة » لتعبئة القوى النفسية والروحية والحلقية التي تحتاج إليها كل أمة في الحياة ، ويحتاج إليها كل فرد في المجتمع .. إنه يمنحنا فيما يمنح ، تذكيراً بالحق الذي تقوم السموات والأرض عليه ، وتخلقاً بالقوة التي لا تنتصر أمة بدونها ، وشغفاً بالحرية التي لا تتم الكرامة الإنسانية إلا بها . « حق ، وقوة ، وحرية » هذا هو بعض ما يمنحنا رمضان في أيامه الجائعة العطشى .. وما رأيت في حياتي صائماً يفهم معنى الصوم ، ويتحقق بحكمته وفلسفته إلا مناضلاً في سبيل الحق لا تلين له قناة ، قوياً في حلبة الصراع لا ينهزم منه ، خلق حراً بأكرم معاني الحرية لا تعلق به ذلة ولا عبودية .

إن المسلم الصائم طوعية واختياراً وعبودية لله ، وخضوعاً لجلاله ، ورجاء للقرب منه والأنس بحضرته ؛ يرى الأناية والأثرة والعزلة والانقطاع عن مشاركة المجتمع في آلامه وأحزانه .

يرى في ذلك كله باطلاً ما أحراه أن يرفع عنه وينتصر عليه .

ويرى الاهواء والشهوات والظلم والبغي والعداوة والبغضاء ضعفاً يقتل روح الأمة ما أجدر به أن يثور عليه ويقف دونه .

ويرى في لذة المناجاة مع الله ، وتنفيذ شرعه فيما نهى وأمر : حرية تنأى به عن العبودية لغير الله من طعام وشراب ولذة وطمع وأمانى كاذبة . فهو الحر دائماً وأبداً ، هو الحر الذي لا تتجلى حريته في القدرة على الانتقال من مكان إلى مكان ، بل في القدرة على أن يتحكم في عواطفه وميوله ، فيحبس عنها ما يشاء ويطلق منها ما يشاء .

إنه هنا حر الروح ولو أطبقت عليه الجدران ، حر الفكر ولو عاش في أرض قفر ، حر الإرادة ولو كبل بالحديد .. وهذه لعمري هي الحرية التي تليق بكرامة الانسان ، وأين منها حرية الاشباح والأجسام ! .

بهذا الفهم الدقيق لرمضان وفلسفته ، وبهذا التخلق الكامل بالصيام وآدابه ، سجل تاريخنا القديم والحديث من النصر في معارك الحق آيات بينات ، وترك

للإنسانية من أبطال الإصلاح والفتوح والحكم والعلم أعلاماً شامخات ..
أفترقون المسلمين يوم بدر ، وقد كانت في اليوم السابع عشر من رمضان ،
أفترقونهم يومئذ خاضوا المعركة في قلة من العدد والعدد ثم انتصروا على أقرانهم
من أبناء عمومته ومواطنيهم نصراً مؤزرأ خلده القرآن في محكم آياته ...
أفترقونهم استطاعوا أن يحرزوا هذا النصر لولا أن الصيام بث فيهم من
القوة ونصرة الحق والحرية الروحية الكاملة ما جعلهم يخوضون المعركة اقوياء
أحراراً ؟ .. إن بطشوا بطشوا بقوة الله ، وإن رموا رموا بغزة الله ، وإن صالوا
وجالوا كانت قوة الحق وإشراقة الروح هي التي تسدد لهم الهدف وتلهم
على مقاتل الاعداء ! .

ثم هل ترون معاركنا التي انتصرنا فيها في اليرموك والقادسية وجلولاء
وحطين وغيرها ... هل كانت تتم بهذه الروعة المعجزة التي لا تزال تذهل
كبار الباحثين في أسرارها ، لولا أن أهلها كانوا يتخلقون بخلق الصائمين :
من عفة وسمو ، وتضحية وفداء ، وتحمل للشدائد ، وخضوع لله واستعلاء
على كل ما سواه ، واستهزاء بقوى الباطل مهما كثرت ؟ .

ذلك أنهم وصلوا أرواحهم بقوة الله ، ومن ذا الذي يغلب الله ، والله غالب
على أمره ؟ من ذا الذي يغلب الله ؟ .

تعالوا معنا إلى معاركنا الحديثة .. تعالوا معنا إلى جبال أوراس ، إلى
أرض البطولات والمعجزات في الجزائر ... أترون هؤلاء الابطال الذين
صامدوا نصف مليون يحملون سلاح فرنسا ، وأمريكا ، ودول حلف
الاطلسي .. صامدوهم ، وما يزالون صامدين لهم منذ بدء ثورتهم وقد مضى
عليها تسعمائة يوم^(٣) ، يقارعون الباطل المسلح والجيش المتكاثرة قراعاً تنحني
له الهامات ...

أترون هؤلاء كانوا يستطيعون أن يشبوا في هذه المعركة الكبرى أياماً قلائل
لو أنهم خاضوها بنفوس أولئك الملحمين الذين يضحكون من صيام الصائمين ؟ .

(١) وقد استمرت الثورة بعد ذلك ، وبلغ عدد شهدائها المليون حتى كتب الله لها النصر المبين ، (الناشر)

أو أنهم خاضوها بنفوس هؤلاء المنهزمين الذين تمتلئ بهم الخمارات والبارات ويعجزون عن مقاومة الجوع والعطش ساعات معدودات ؟ .. كلا يا اخواني ، لقد علمهم الاسلام بالصيام في أيام السلم كيف يستطيعون أن يصوموا في أيام الحرب ... والحرب لا ينتصر فيها الضعيف على القوي ، والقليل على الكثير ، والأعزل على المسلح إلا إذا كانت له أخلاق الصائمين ...

إن أبطال جبال أوراس ، وقسنطينة ، ووهران في الجزائر صاموا من قبل ، فأمكنهم اليوم أن يخوضوا المعركة صائمين . إنهم ما يزالون صائمين منذ سنتين وخمسة أشهر ... صائمون عن الراحة : فلا يعرفون هدوءاً ولا استقراراً ... صائمون : عن اللذة فلا يعرفون زوجة ولا ولداً ... صائمون : عن الترف فلا يعرفون حريراً ولا ديباجاً ... صائمون : عن النوم فلا يعرفون ليلاً ولا نهاراً ، صائمون : عن عشق الحياة فلا يرون ألد من الموت طعماً ، ولا أحلى من الشهادة مورداً ..

يقول الفرنسيون وقد شابت ذوائبهم من بطولات الجزائريين : من يكون هؤلاء ؟ أهم جن ؟ أم شياطين ؟ أم قوم خلقت قلوبهم من الحديد ، فلا تعرف الخوف ولا الهلع ، ولا يرهبهم الدمار ولا النار ؟ !

يا حسرتا على هؤلاء المستعمرين المفطرين ، أنهم لم يدركوا سر هزيمتهم أمام هؤلاء الثائرين الصائمين ... إن السر هنا أيها الناس ... نفس لها أخلاق المفطرين المنهزمين الذين يستعبدهم الطعام ويستذلهم الشراب ... لن تنتصر على نفس لها أخلاق الصائمين المنتصرين الذين يستعبدهم رب قاهر ، ويوجههم قلب مشرق طاهر .

وبعد ، فإن رمضان آت بعد أيام .. فالذين يستقبلونه على أنه شهر جوع نهاري وشيع ليلي ، وتلاوة للذكر باللسان ، ونوم في المساجد في النهار ، لن يستفيدوا منه ..

وأما الذين يستقبلونه على أنه مدرسة لتجديد الإيمان وتهذيب الخلق ،

وتقوية الروح ، واستئناف حياة أفضل وأكمل ، فهؤلاء هم الذين يستفيدون منه ... هؤلاء هم الذين يجدون في نهاره لذة الإبطال في المعركة قد اصطلوا بنارها وغبارها ، ويجدون في مسائه وفي ليله ، وفي سحره وفجره ؛ لذة المعركة في ساعاتها الأخيرة ، قد أغدوا السير ، يقتلون ويأسرون ويغنمون ... هم الذين تفتح لهم أبواب الجنان في رمضان ، وتغلق عنهم أبواب النيران ، وتلقاهم الملائكة ليلة القدر بالبشرى والسلام . هؤلاء هم الذين ينسلخ عنهم رمضان ، مغفورة لهم ذنوبهم ، مكفرة عنهم سيئاتهم ، مجلوة بنور الله قلوبهم ، مجددة بقوة الإيمان عزائمهم ...

هؤلاء .. هؤلاء هم الذين تصلح بهم الأوضاع وتكسب بهم المعارك ، وتسعد بهم المجتمعات .. وما أحوجنا إليهم اليوم ، ونحن في قلب المعركة مع الاستعمار والباطل والفساد والانحلال ، فأما أن نذل وأما أن نحيا .

أيها المؤمنون ، يا أبناء الأمة .. خطب رسول الله ﷺ صحابته في آخر يوم من شعبان - أي في مثل أيامنا هذه - فكان مما قال : « أيها الناس : قد أظلكم شهر عظيم مبارك ، شهر فيه ليلة خير من ألف شهر ، شهر جعل الله صيامه فريضة وقيام ليله تطوعاً ، من تقرب فيه بخصلة كان كمن أدى فريضة فيما سواه ، ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه ، وهو شهر الصبر ، والصبر ثوابه الجنة ، وشهر المواساة ، وشهر يزداد في رزق المؤمن فيه ، من فطر فيه صائماً كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار ، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء .

قالوا : يا رسول الله ليس كلنا يجد ما يفطر الصائم ، فقال رسول الله ﷺ : يعطي الله هذا الثواب من فطر صائماً على تمر أو شربة ماء أو مذقة لبن .

وهو شهر أوله رحمة ، وأوسطه مغفرة ، وآخره عتق من النار . من خفف فيه عن مملوكه غفر الله له وأعتقه من النار ، فاستكثروا فيه من أربع

خصال : خصلتين ترضون بهما ربكم ، وخصلتين لا غناء بكم عنهما . فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم : فشهادة أن لا إله إلا الله ، وتستغفرونه . وأما الخصلتان اللتان لا غناء بكم عنهما : فتسألون الله الجنة وتعوذون به من النار ، ومن سقى صائماً سقاه الله من حوضي شربة لا يظماً حتى يدخل الجنة (١) . »

وفي حديث آخر : « أتاكم رمضان شهر بركة يغشاكم الله فيه ، فينزل الرحمة ، ويحط الخطايا ، ويستجيب فيه الدعاء ، ينظر الله تعالى إلى ثنائسكم فيه ويباهي بكم ملائكته . فأروا الله من أنفسكم خيراً ، فان الشقي من حرم فيه رحمة الله عز وجل (٢) . »

هذا ما كان يقوله رسولكم ﷺ قبيل رمضان ، يستحث فيه عزائم المؤمنين للطاعة والعبادة ، ويشرح صدورهم لما ينتزل عليهم في أيامه من بركة ورحمة ، ويشوق أرواحهم إلى ما يضيفه الصيام عليها من قوة وإشراق وقدسية ... فاستعدوا لرمضان ، وأعدوا أنفسكم للتخلق بأخلاقه والإفادة من حكمه وأسراره .. هيا أيها المؤمنون ، فقد قامت سوق الجنة ، هيا أيها المتخلفون ، فقد امتدت إليكم يد الله ! .

(١) رواه ابن خزيمة في صحيحه .

(٢) رواه الطبراني .

رمضان شهر الحق

﴿ وكذَّبَ به قومك ، وهو الحق ،
قل لست عليكم بوكيل ﴾ الانعام : ١٦

قد كان يكفيننا في الحث على الصيام والدعوة اليه أن نقول للمسلم : إن الله أمرك بالصيام ، دون أن نعدد فوائد الصيام وأسراره ، ولكننا مضطرون لبيان ذلك ، لأمرين :

اولهما : أن الله تعالى علمنا في كثير من آيات الكتاب المبين أسرار تشريعه وفوائده ، شحذاً لاذهاننا أن تفكر وتعمل ، وإيماءً إلى أن هذا التشريع الإلهي الخالد لم يقم إلا على ما يحقق للناس مصالحة أو يدفع عنهم ضرراً .

انظر إلى قوله تعالى حين يعلمنا آداب الاستئذان في البيوت كيف يختم ذلك بقوله : ﴿ هو أزكى لكم ^(١) ﴾ . وحين يأمر المؤمنين بغض الابصار ، كيف ينبهنا إلى الفائدة الاجتماعية من ذلك فيقول : ﴿ ذلك أزكى لهم ^(٢) ﴾ ، بل إن الله تعالى حين أمرنا بالصيام ذكر حكمته وفائدته بكلمة واحدة من كلامه المعجز : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم الصيامُ كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ^(٣) ﴾

(١) النور : ٢٨

(٢) النور : ٣٠

(٣) البقرة : ١٨٣

فالحكمة من تشريع الصيام - كما ينبهنا الله إليها - هي التقوى أو الاتقاء ..
والتقوى : هو فعل كل خلق جميل يحبه الله ويحمد صاحبه عليه في الدنيا .
والاتقاء : أي الوقاية ... وهي الوقاية من خلق ذميم يؤذي المجتمع ويؤذي
الأفراد ..

بل انظر إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آداب الصائم ..
« إنما الصوم جنّة (وقاية) ، فإذا كان صوم أحدكم فلا يرفث ولا يفسق » .

فقد قدم الحكمة من الصيام ثم بيّن آدابه ، ليكون أوقع في النفس وأعمق
اثراً ، وليكون المؤمن أكثر اطمئناناً إلى العبادة حين يؤديها ، وإلى التشريع
حين ينفذه .

ولقد سبقنا إلى ذلك إبراهيم الخليل عليه السلام . حين يسأل ربه أن يريه
كيف يحيي الموتى ! .. فقال الله تعالى له : ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ ﴾ قال إبراهيم :
﴿ بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ . فليس في تعطيل الأحكام وبيان أسرارها ما ينافي
الايمان أو يدل على ضعف اليقين ، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
يعلل الأحكام ويبين الحكمة منها في كثير من أحكام التشريع ، كما فعل حين
نهى أن تنكح المرأة على عمتها أو خالتها فقال في بيان الحكمة من ذلك « إنكم
إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم » .

ثانيهما : أن بعض الناس ما برحوا يزعمون الحرية في فهم الاديان
والعقائد ، فيبيحون لأنفسهم أن يضعوها موضع الشك والنقد ، ثم لا يؤمنون
إلا بما رضىته عقولهم ، وسلم به منطقهم وجدلهم .. وما دام الاسلام لا يتنكر
للعقل ، ولا يخاطب الناس إلا بما يتفق مع التفكير السليم والمنطق السديد ، ولا
يأمر من التشريع بشيء إلا إذا كانت المصلحة تحتم العمل به أخذاً أو تركاً ،
لم يكن علينا حرج من أن نحتكم إلى العقل في أسرار التشريع وبيان فوائده ،
وما برح الناس في كل عصر يرون من فوائد التشريع ما يتفق مع تفكيرهم
ومنطقهم ومصالحهم ، وهذا دليل على أن من وراء هذا التشريع يد الله القادر

الرحيم ، وصنع الله الحكيم العالم ... ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ فإذا استطعنا في مثل هذه الأحاديث أن نشرح صدور المؤمنين لفريضة الصيام ، ونثبت للمتردددين والجاحدين حكمته وفلسفته ، كان ذلك كسباً كبيراً للإسلام لا ينكره أحد .

والآن ما هي حكمة الصيام ، وما هي فوائده ؟ .

أما اننا لن نتكلم هنا عن فوائده الصحية فذلك أولى بطبيب مسلم يتناوله بالشرح والايضاح ، والله تعالى أمرنا أن نسأل أهل الذكر فيما يعلمون ، فلنترك الجانب الصحي في الصوم للأطباء يفيضون فيه على قدر ما وصل إليه العلم الحديث من اكتشاف لفوائده .

ولنأشأننا هنا أن نتحدث عن فوائد الصيام النفسية والروحية والخلقية ، وهذا ميدان واسع لا يصح أن نتناوله بالتفصيل خلال الأحاديث العامة التي تداع على الناس في الإذاعة والصحف ، وإنما نلم منه بمقدار ما يتصل من فوائده بالمجتمع والأفراد والأوضاع القائمة في مجتمعنا الحاضر .

ومن أهم ما ينطوي عليه الصوم من تربية اجتماعية في نفوس الصائمين ، أنه : يثبت فيها الايمان بالحق ، والثبات عليه ، والدعوة اليه ، والتخلق به .

للحق في الاسلام منزلة كبرى ، فمن أسماء الله . (الحق) ﴿ذلك بأن الله هو الحق^(١)﴾ والحق هو ما يقوله الله ويصدر عنه ﴿قوله الحق^(٢) وله الملك^(٣)﴾ ﴿الحق من ربك^(٣)﴾ وبذلك كانت رسالات الانبياء دعوة إلى الحق وإقراره بين الناس ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا

(١) الحج : ٦ .

(٢) الانعام : ٧٣ .

(٣) البقرة : ١٤٧ .

فيه^(١). وكانت رسالة الإسلام وهي خاتمة للشرائع دعوة إلى الحق رتبيناً لدعائمه ﴿يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم^(٢)﴾ .

وإذا كان الحق هدف رسالة الاسلام ، كان من أول الحق أن تذكر عبوديتك لله الذي خلقك وأنشأك وأمدك بالنعم التي لا تحصى لها عدأ . والباطل الذي ليس بعده باطل ، أن ينسى الانسان عبوديته ، وسلطان الله عليه . وما يتأله المتألهون من البشر ، ولا يطغى الطغاة ، ولا يظلم الظالمون إلا حين ينسون عبوديتهم ، فيزعمون لأنفسهم من صفات الله ما يستبيحون به سفك الدماء وإزهاق الأرواح والتكبر في الأرض والإفساد فيها واستعباد جماهيرها ، وإذلال كرامتها ..

كذلك كان فرعون عالياً في الارض مسرفاً جباراً يقول لقومه : ﴿ما علمت لكم من إله غيري^(٣)﴾ ، وبذلك قتل الرجال واستحى النساء ، وشرذ أصلح فئات الشعب وأكرم دعائمه وهداته .. واستمر في طغيانه حتى أمسكته يد الله تذكره .. ﴿حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله الا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين^(٤)﴾ .

وفي الصوم يذكر الإنسان أنه إنسان ... أي أنه عبد محتاج إلى الطعام والشراب ، مجرد من كل قوة ، يستوي مع الناس في قوام الحياة من غذاء وسكن ولباس ..

في الصوم يذكر الملوك والرؤساء والزعماء والقادة والأقوياء والأغنياء وكل ذي سلطان ، أنهم كالشعب في حاجة إلى رزق الله وطعامه وشرابه .. وكالفقراء والضعفاء جوعاً وضعفاً حين يحال بينهم وبين الغذاء والماء .. فلماذا يمنعون هن

(١) البقرة : ٢١٣ .

(٢) النساء : ١٦٩ .

(٣) القصص : ٣٧ .

(٤) يونس : ٩٠ .

الشعب طعامه وغذائه ؟ لماذا يمنعونه حقه ؛ ولو منعهم الله أسباب القوة لكانوا مستضعفين في الارض أذلة صاغرين ؟ .

هذا أول ما يذكره الصائم - ولو كان ملكاً أو طاغية - من معاني الحق التي قد ينساها في غير رمضان .. وما أروع هذا الدعاء وما أبعد دلالته حين يفطر المؤمن فيقول : « اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت . » إنه هنا يعترف بأن الرزق رزق الله ، والمال ماله ، والعطاء عطاؤه ، لا يملك من ذلك شيئاً إلا أن يمنحه الله إياه .. وهذه أخص خصائص العبودية وألزم صفاتها ..

ومن الحق أن يذكر الانسان دائماً صلته بأمته ، وأن يعيش معها دائماً بقلبه وروحه ومعيشته ، يفرح لفرحها ، ويأسى لأسائها ، وما يتحكم الطاغية في رقاب أمتة إلا حين ينسى هذه الحقيقة ، فيزعم أن له من العبقريّة ، والقوة ، والدهاء ، وقوة الشخصية ، ما يحتم على الناس أن يطأطئوا له الرؤوس ويعترفوا أمامه بالعجز ، ويسيروا وراءه في الرأي .. فان قال أحدهم « لا » قالت للطاغية نفسه المتكبرة : « اقتل واسجن وشرّد » .

وما يقسو الأغنياء على الفقراء ، ولا يقطع القريب صلة القربى ، ولا يتنكر الجار لحق الجار ، إلا حين ينسون الرابطة الاجتماعية فيما بينهم ، فيعيش كل واحد منهم لنفسه لا للناس ، ومع بطنه وفرجه لا مع الأمة في حاجاتها ومطالبها .. وفي الصوم يذكر الإنسان أنه من المجتمع .. يذكر أنه منهم وإليهم ومعهم وبجوارهم .. لأنه يجوع معهم ، ويفطر معهم ، ويستقبل العيد معهم .. حينئذ يتذكرهم ويتذكر حاجاتهم ، يذكر فقراءهم وما يعضهم من جوع ، وينتابهم من بؤس وحاجة ، ولولا الصيام لما ذكر من ذلك شيئاً .. ومن هنا كانت نفس الصائم أسمى النفوس وأجودها بالعطاء وأقربها إلى قلوب الناس .. لقد كان المسلم الأول محمد صلى الله عليه وسلم من أجود الناس ، ولكنه كان في رمضان كالريح المرسلة سخاء ونفعا وإنعاشاً وإنباتاً ..

أنفقت عائشة في يوم واحد مائة ألف درهم على أبناء شعبها وهي صائمة ،

عليها ثوب خَلِقَ.. فقالت لها خادمها : لو أبقيت لنا ما نفطر عليه اليوم ! فقالت عائشة : لو ذكرتيني لفعلت ! أرايتم أيها الناس كيف تسمون نفس الصائم حتى ينسى حاجاته ومطالبه ، ولا يذكر إلا أمته وحاجاتها ؟ كذلك يزيد الله من الصائمين !

ومن الحق أن يعمل العاملون في المجتمع من رؤساء وزعماء وموظفين وسياسيين ، لا ابتغاء شهرة ، ولا طلبا لثناء ، بل ابتغاء وجه الله وطلب مرضاته .. فإن جحدت الأمة فضلهم لم ينسبوا إلى الجحود ، وإن عرفت لهم قدرهم لم يحملهم ذلك على الغرور ، وإن احتاجت إليهم في رأي لم يكونوا لها من المخادعين ، وإن احتاجوا إليها لنيل ثقة أو إحراز تأييد لم يكونوا لها من المتمالقين الكاذبين ؛ بهذا تسعد الأمة بزعمائها وقادتها ، ويبارك الله لهؤلاء الزعماء والقادة في أعمالهم وجهادهم .. وبغير ذلك يكون الشقاء والبلاء ..

وفي الصوم تعويد كريم على هذا الخلق العظيم .. فالصوم عبادة مستورة . هو سر بين الإنسان وربه ، لا يكون فيه الرياء ولا الخداع ، ولا يطلب عليه المدح ولا الثناء . يصوم المؤمن وحسبه من جوعه وخضوعه علم الله به وإطلاعه على صدق نيته ، وحسبه من الثواب أن يطهر الله نفسه من الخداع والرياء ، وأن يلزم لسانه الصدق والوفاء ..

ينجبل من الكذب والغش والسرقة والغيبة والإيذاء والعدوان على الناس في أعراضهم وأموالهم ، لأن رسوله صلى الله عليه وسلم قال : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » ، ولأن رسوله صلى الله عليه وسلم نهاه عن أن يقابل الإساءة بالإساءة وهو صائم ، وأن يرد على البذاءة بالبذاءة « فان شاتمته أحد أو خاصمه فليقللني صائم.. » أي إني ملكك أرضي ! لا أكذب ولا أخاصم ولا أؤذي .. يا لها من أخلاق يحتاج إليها الزعماء والسياسيون قبل كل شيء ! وفي رمضان قبل كل وقت ! . وفي زمننا هذا قبل أي زمن مضى !

ومن الحق أن الإنسان ليس لحماً ودماً فحسب ، حتى تدور أهدافه في الحياة كلها على مطالب اللحم والدم . بل هو إنسان فيه خصائص الملائكة ، روح

وقلب . كما له من خصائص الحيوان لحم ودم .. وحين ينسى الإنسان هذه الحقيقة يغدو شراً من الحيوان فتكاً وضراوةً ، وأحط منه غريزة وشهوة .. ألا نرى إلى هؤلاء الغربيين كيف غدوا بلاء على الشعوب والانسانية يوم فقدوا ملائكتهم وأبطلوا حيوانيتهم ؟ ...

وفي الصوم جوع للبطن وشبع للروح ، إضواء للجسم ، وتقوية للقلب ، هبوط باللذة ، وتصعيد للنفس . في الصوم يجد المؤمن فراغاً لمناجاة الله والاتصال به والأنس إليه ، كما يجد فيه متسعاً لقراءة كتاب الله الخالد الذي يتفد ماء البحر ولا تنفد أسرارهِ ، ويقف الفلك عن دورته ، ولا يقف عن تهذيب النفوس وإصلاح الأخلاق وتطهير الأرواح ..

في رمضان يسمع المسلم قول ربه في القرآن يناديه للخير ويهيب به إلى التقوى ، ويردعه عن الشر ، ويحجزه عن الإثم ، في رمضان يسمع المسلم قدام ربه في أعقاب الليل يقول له : إليّ إليّ يا عبلي ، فطالما أبعدتك الدنيا عني وأنت أقرب اليك من جبل الوريد ، ولطالما أبأسك الشيطان من رحمتي وأنا الذي وسعت رحمتي كل شيء ، ولطالما أغراك ما أمددتك به من مال وسلطان فظننت أنك مستغني عني ، وأنت إن يسلبك الذباب شيئاً لا تستغنيه منه .. ولطالما هبطت بنفوسك إلى درك الحيوان وأنا الذي خلقتك لتكون خليفتي في الأرض .. تعالى إلى ربك ولا رفعتك إلى مستوى ملائكتي تعيش في عالم من سحر النفس وإشراق الروح ، وضياء القلب ، ما يجعلك وأنت في الدنيا تعيش في الجنة قبل أن تدخل الجنة ..

أيها الاخ المؤمن !

هذا بعض ما يشته الصوم في نفسك من معاني الحق .. وهذا هو ما كان يفهمه السلف الصالح من معاني الصوم ، وبذلك كانوا معجزة الاسلام في الثبات على الحق ، والدعوة إليه والتخلق به . لم تر الانسانية ما يضايقهم : سمو نفس وشرف هدف ، ونبل غاية ، وإشراق روح ، وهداية قلب .. اليس الانسانية في حاجة الى مثل هذا الخليل ؟ بل اليس في حاجة الى مثل هذا

النفوس ؟ ألا ترى إلى مجتمعك وما يضح من باطل وضلال وظلم وفساد ... أين مكان الحق في مجتمعك الذي تعيش فيه ؟

أمن الحق أن تحكم جماهيرنا بالحديد والنار ، وأن تلهب ظهورها سياط الجلادين ؟

أمن الحق أن تعيش جماهيرنا بالبؤس والشقاء ، وأن يستأثر بالثروات نفر من الأغنياء والماجنين ؟

أمن الحق أن تخدع هذه الأحزاب جماهيرنا بمعسول القول لتصل إلى إرضاء شهواتها من الاستثثار بالجاه والمنفعة والسلطان ؟

أمن الحق أن تكون السياسة كذباً وخداعاً وتضليلاً ، وإثارة للغرائز ، وقيادة للجماهير إلى منحدر الفساد والانحلال ؟

أمن الحق أن يكون الدين تجارة عند بعض الفقهاء ، وأن يكون العلم شركاً عند بعض العلماء ، وأن يكون الحكم أداة للإذلال والإستغلال عند بعض السفاحين والجهلاء ؟

يا أخخي المؤمن !

إن الاسلام يريد منا أن نكون في كل عصر أكرم من يمثل الحق ويحميه ، فهلا وجدت في رمضان ما يؤهلك لحمل هذه الرسالة إلى شعوب العالم ؟ وهلا وجدت في رمضان ما يقربك إلى المكان العالي الذي هيأه الله لك « أن تكون شهيداً على الناس » تقودهم إلى الخير والسلام ؟ وهلا وجدت في رمضان ما يقربك من ربك الحق ، وراء رسولك الحق ، على ضوء كتابك الحق ، وفي هدى شرعك الحق المستقيم ؟ ..

إستمع إلى الله يقول لك من خلال آيات الصيام : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ﴾ ^(١).

* * *

رمضان شهر القوة

« ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد
الذي يملك نفسه عند الغضب »
حديث شريف

هذه الحياة صراع لا يفوز فيها إلا الأقوياء ، والقوة ضربان قوة مادية ، وقوة
معنوية ، ومن مبادئ الإسلام أن القوة المادية وحدها قد تنتصر ولكن انتصارها لن
يكون طويلاً ، ولن يكون مفيداً ، وقد قص علينا القرآن فيما قص من أنباء الامم
الماضية ، أن أمماً كانت قوية في مظاهر الحياة المادية فعانت في الأرض فساداً ، وحاربت
رسل الله وأنبياءه وكذبت دعوات الاصلاح ، فأوردت بلادها الخراب والدمار .
استمع الى ما يقوله القرآن الكريم عن بعض هذه الامم : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ
فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ،
وَتُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ، وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ، الَّذِينَ طَعَنُوا فِي الْبِلَادِ ،
فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ، إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾^(١)
ويقول الله تبارك وتعالى : ﴿ أَوْ لَسَمُ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا
عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا
أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ . تلك هي نهاية الامم التي أخذت من القوة المادية بأدنى

(١) الفجر : ٦ - ١٤ .

نصيب ، ولكنها كانت خلاء من القوة الروحية المعنوية ، فلم تستهوَ عقيدتها ، ولم تستهوَ نفوسها وأخلاقيها ، ولم تأخذ من حياة الروح بأدنى نصيب .

وأما القوة المعنوية وحدها دون سند من القوة المادية فيقرر الإسلام أن لا سبيل لها إلى النصر ، ولا شأن لها في توجيه الحياة ، وقد رأينا أمماً وشعوباً عاشت في التاريخ هزيمة الحق كسيرة الجناح ، تسام في ديارها الخسف والأذى ، لأنها لم تسلك سبيل الحياة في القراع والنضال ، فانهزمت أمام الأقوياء في أجسادهم ومعيشتهم شر هزيمة ..

والسبيل الصحيح إلى حياة كريمة سعيدة .. أن تتصافر المادة مع الروح على تقويم الانسان وبناء معيشته ، وأن تمسك الأمة بجناحين من قوة المادة وقوة الروح ، لا يطفى أحدهما على الآخر ، فاذا هي في السماء تصعد على استواء لا يخشى عليها من هبوط أو انحدار ، ومن هذا ما علمنا القرآن أن ندعو ، فنقول : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ۝ ﴾ .

وكما أوجب علينا القرآن أن نصصح العقيدة ، ونهذب النفس ونسمو بالروح ، أمرنا أن نعد القوة إلى أقصى ما نستطيع ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ۝ ﴾ . وكما أمرنا أن نقيم الصلاة ونؤدي الزكاة ، وهي من أبرز دعائم القوة الروحية والمعنوية ، أمرنا أن نعمل ﴿ وَاتَّبِعْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۝ ﴾ .

وأمرنا أن نكتشف كنوز الأرض وأسرار السماء ﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝ ﴾ .

وأمرنا أن نجاهد في سبيل الله ونقدم أرواحنا في سبيل الحق ، والجهاد من أكبر مظاهر القوة وأكثرها حركة وعملاً ، وعلى هذا قامت دعوة الاسلام في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففاضت بأنباء الكفاح ، وزحرت بوقائع المعارك ،

(١) القصص : ٧٧ .

(٢) يونس : ١٠١ .

وليس رسول الله الدروع ، وخاض معامع القتال ، وقاد الجيوش ، وقاتل ، وقتل ، وانتصر وجرح .. ثم كان النصر للدعوة التي جمعت بين القوتين ، على الوثنية التي أضعفت من عقول العرب وأخلاقهم ، وقواهم النضالية المكافحة .

ومما يقرره الاسلام أن القوة المعنوية مع قليل من القوة المادية تغلب القوة المادية اذا فقدت الوازع النفسي والباعث المعنوي .. وفي هذا يقول القرآن الكريم : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾^(١) . ولنا في معركة بدر أروع مثال : فالمسلمون الثلاثمائة الذين انتصروا في بدر كانوا عرباً ككفار قريش الذين بلغ تعدادهم في بدر ألفاً ... أولئك أقرباء هؤلاء ... ومن بلد واحد ، وأمة واحدة ، وميزات واحدة . والسلاح في أيدي الألف كان أكثر وأوفر منه في أيدي الثلاثمائة ... ولكن المسلمين كانوا يملكون من قوة العقيدة ، وقوة الخلق ، وقوة الروح ، ما لا يملكه أولئك الكفرة ، فانهزموا هزيمة سجلها القرآن كمثل رائع يدل على ما تستطيع القوة المعنوية أن تحرزه من نصر على القوة المادية اذا أخذنا من قوة السلاح بأدنى نصيب .

وقد ضرب القرآن مثلاً للفرد الذي يجمع بين القوتين فيربح وينجح ، بموسى حين سقى الماء للفتاتين ، عن قوة عضل وجسم ، ومشى معهما إلى أبيهما لا يرتفع طرفه إليهما عن حياء وخلق نبيل .. قالت إحداهما لأبيها : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾^(٢) . وضرب القرآن مثلاً للأمة التي تجمع بين القوتين فتسعد وتنصر بأمة محمد ﷺ ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾ (وهذا عنوان القوة المادية) رحماء بينهم (وهذا عنوان القوة المعنوية) تراهم رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً ﴿ وهذا ثمرة الجمع بين القوتين ، وأبرز عناصر السعادة للأمة التي تجمع بينهما .

والصيام الذي فرضه الله على المسلمين ، فيه الجمع بين القوتين جمعاً رائعاً منسجماً يؤتي أحسن الثمار . فهو من الناحية الصحية قوة للجسم يدفع عنه كثيراً

(١) البقرة : ٢٤٩ .

(٢) القصص : ٢٦ .

من الأمراض ، ويشفي فيه كثيراً من العلل ، وهو من الناحية المعنوية يعطي المسلم ثلاث قوى معنوية لها أكبر الأثر في سعادة الأفراد والجماعات .

أولاهما الصبر : فالمسلم في رمضان يصبر على وطأة الجوع والعطش ، ويترك كل ما اعتاده في النهار من ملذات ومرطبات ومنعشات ... يصبر على الحرمان من ذلك كله بطوعه واختياره ، لا خوفاً من سجن ، ولا رهبة من عقاب في جسمه أو ماله ، والصبر الاختياري على ملذات النفس وأهوائها أكثر فائدة للنفس وللأمة من الصبر الذي تحمل عليه الفاقة ، أو يلجئ إليه الحرمان ، أو تبعث عليه الرهبة من العقاب والعذاب ...

إن الجندي الذي لم يتعلم الصوم اختياراً في أيام السلم ، لن يكون أكثر صبراً على الجوع في قلب المعركة حين يحيط به العدو وينقطع ما بينه وبين قيادته ، كذلك الجندي المسلم الذي تحمّل الصبر على الجوع شهراً من كل سنة ، وبضع عشرة ساعة في كل نهار ، حتى صار الصبر عنده على الدخان والشاي والقهوة ، إن كان من المستهزين بها ، أمراً اعتيادياً في شهر الصوم . وقد رأيت بنفسي - أيام اعتقالنا في الحرب العالمية الثانية - كيف تهاوى على الأرض والأسرة - حين انقطاع الطعام عنا بضعة أيام - من لم يكن يعرف الصوم أو يعتاده ، بينما صبر على ذلك الصائمون من قبل ، كأن شيئاً عادياً وقع لهم في حياتهم ، فصبروا عليه صبراً يدعوا إلى الدهش والاعجاب .

إن الصبر على الشدائد قوة معنوية من أقوى الأسلحة التي تتسلح بها الأمم في كفاحها وحروبها ، والصبر على الحرمان في قلب المعركة من أهم ما ينتصر به الجيش على أعدائه . ونحن نعلم أن من أكبر مشكلات القيادة الحربية في العصر الحديث : تموين الجيوش بالطعام والغذاء ، والترفيه عنهم حين يطول بعدهم عن بلادهم وأهلهم .. وكثيراً ما رأينا الجيوش الغربية تصطبح معها فرقة كاملة من النساء الساقطات ، ليقمن بمهمة الترفيه عن الجنود في ميدان القتال ..

قارن بين هذا وبين الجيوش الإسلامية التي انطلقت من الجزيرة العربية لتخوض غمار حروب استمرت عشرات السنين ، ثم لم يحدث أن وجدت القيادة

الاسلامية نفسها إزاء مشكلة التموين أو الترفيه . أما التموين فلأن الجيش الاسلامي كان من جنود لا يرون اللذة في طعابم فاخر أو شراب بارد ، بل في شرب كأس الشهادة ليدخلوا جنة عرضها السموات والأرض سراعاً بلا إبطاء ... وما الطعام عندهم إلا شيء يملأ المعدة ويقوم الجسم ، فان أصابوه في اللحم واللبن لم يشبعوا منه ، وإن أصابوه في التمر والماء أكاوا منه ، وإن لم يصيبوه أياماً وليالي حسبوا أنفسهم في يوم قاتظ من أيام رمضان ! .

وأما الترفيه فقد كانوا من قوة الروح وصفاء الايمان وسمو الخلق . بحيث وجدوا ترفيه أرواحهم وأنفسهم في العبادة .. إي والله ! لقد كانوا يرفهون عن أنفسهم ويتقوون على قتال أعدائهم بالعبادة في أعقاب الليل قبيل انبثاق النور ، حيث كانوا يقومون للتهجد وقراءة القرآن والتدريس بالعلم قبل أن يؤدوا صلاة الفجر بساعات .. يجدون في ذلك قوة أرواحهم ، وراحة قلوبهم ، وكانوا يفعلون ذلك كل يوم بعد الانتهاء من معارك ما أقساها يومئذ على المحاربين .. السلاح الأبيض والنبل المسدد ، والخييل المسرجة هي عدتهم وأسلحتهم التي يتقاتلون بها وجهاً لوجه أمام الأعداء . كل يوم من الفجر إلى الغروب .. حتى اذا أدوا صلاة العشاء هجعوا في مراقدهم تحت الخيام ساعات ، ثم قاموا سراعاً الى الله يقفون بين يديه ، ويجدون برد قلوبهم بمناجاته والترفيه عن أرواحهم بذكره وتلاوة كتابه ..

كذلك كانوا يفعلون .. ألم تسمعو كيف كان السبب في جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه ، ما كان يسمعه حذيفة بن اليمان أحد قواد الجيش الاسلامي الذي كان يغزو أذربيجان ، من اختلاف قراءة المجاهدين في الليل حين كان يطوف بخيامهم قبيل صلاة الفجر وكان لهم بالقرآن دوي كدوي النحل ؟ ! .

هذا هو سر ذلك النصر المعجز الباهر الذي ما روى التاريخ له مثيلاً . وذلك هو سر تلك الهزائم المنكرة المتلاحقة التي منيت بها يومئذ جيوش فارس والروم إذ كانت معنوياتها المنهارة ، وخواء أرواحها من التألق والضياء . وفراغ نفوسها من البواعث الإنسانية والمعنوية الكريمة ، كجيوش هذه الدول الغربية لا تضمن استمرارها في القتال إلا إذا كانت بجانبها المسكرات والمومسات ، ولا تطمئن إلى

اندفاع جنودها في المعركة إلا إذا ضمنت لهم الطعام والشراب شهوراً معدودات !
ثانيتهما - الطاعة : فالمسلم الصائم في رمضان إنما يمتنع عن طعامه وشرابه وعاداته ، امتثالاً لأمر الله وطاعة لرسوله ﷺ وهو لا يبالي في سبيل هذه الطاعة ، أن يقع ذلك من نفسه موقع الارتياح أو الشدة ، فحسبه أنه آمن بالله رباً وبرسوله نبياً وقائداً ، وعاهد الله في إسلامه على السمع والطاعة في المنشط والمكروه ، في اليسر والعسر ، وبذلك كان الجندي المسلم الحق مثلاً أعلى للطاعة التي تنبعث من النفس رغبة وإيماناً .

وهل كان (خالد) يصل إلى المثل الأعلى في القوائد الذي يعزل وهو في قلب المعركة فيسلم القيادة إلى غيره ثم ينخرط جندياً يقاتل بنفس الروح العالية التي كان يقاتل بها وهو قائد ، ثم يقول قولته المشهورة : « إني إنما أحارب لرب عمر لا لعمر » . هل كان يتأتى لخالد ذلك لولا أن الإسلام غرس فيه هذا الخلق المثالي بالصيام والصلاة وغيرهما من عبادات الإسلام ؟ . هل كانت تتم تلك الأمثلة الرائعة في تاريخ أبي بكر وعمر وخالد وسعد وغيرهم من أبطال الإسلام لولا أن الصيام طبع هذه النفوس بطابع الطاعة الواعية ، حتى خضع بعضهم لبعض ومنشئ بعضهم وراء بعض ؟ ..

وماذا ترون في جيش أسامة الذي جهزه الرسول قبيل وفاته وجعل فيه شيوخ المهاجرين والأنصار كأبي بكر وعمر وعثمان وخالد تحت إمرة الفتى أسامة بن زيد وهو لما يبلغ العشرين من عمره ؟ ماذا ترون في قول أبي بكر لعمر حين كلمه بعد وفاة الرسول ﷺ في أن يولي عليهم من هو أكبر سنّاً وحنكة من أسامة ، يقول أبو بكر لعمر : يوليه رسول الله ﷺ وأعزله أنا ؟ لا أبالك ؟ ماذا ترون في هذه الطاعة العجيبة لوصايا القائد الأعلى - رسول الله ﷺ - حياً وميتاً ؟ أليس في ذلك كله أثر من آثار الصيام وتربيته المسلمين على خلق الطاعة الكريم للقائد الحبيب ؟ بلى ! والتاريخ على ذلك من الشاهدين ..

ثالثها ، النظام : فالمسلم في رمضان يأكل بنظام ، وينام بنظام ، ويستيقظ بنظام . والمجتمع الاسلامي في رمضان مجتمع يتجلى فيه النظام بأروع مظاهره ..

جوع واحد في النهار ، تحفز للإفطار واحد قبيل الغروب ، إفطار واحد عند الغروب ، صلاة واحدة في العشاء والتراويح والفجر .. إنه نظام لا مثيل له في أمة من الأمم .. نظام يستوي فيه الكبير والصغير ، والعالم والجاهل ، والحاكم والرعية ، والغني والفقير ، لا تمتاز فيه طبقة عن طبقة ، ولا فرد عن فرد .. يا لها من روعة ما أجلها في أعين الباحثين عن أجدى الوسائل لتربية الأمم على الطاعة والنظام !

هذه هي الأخلاق الرئيسة التي يفرسها الصيام في نفس المسام : الصبر ، والطاعة ، والنظام .. أترون أمة من الأمم تتحلى بهذه القوى المعنوية ثم تجد سبيلها إلى الإنهيار ؟ أترون جيشاً يتحلى أفرادها بهذه الأخلاق القوية ثم يجد نفسه على عتبة الهزيمة ؟ أترون مجتمعاً تسوده هذه الأخلاق ثم يتطرق الفساد الى قواعده وأساسه ؟ . أما والذي بعث محمداً بالحق ، لو أننا نملك اليوم هذه الأخلاق في معركتنا مع إسرائيل لأصبحت أثراً بعد عين ، ولو لم يكن عندنا إلا نصف سلاحها وعتادها ! ولو أننا نملك هذه الأسلحة المعنوية لجعلنا قصة الاستعمار في دنيا العرب والإسلام اسطورة من الأساطير ! ولو أننا نتخلق بهذه الأخلاق مع أخذنا بأسباب القوة المادية لانتزعنا لواء الحضارة من أيدي هؤلاء الغربيين العمالقة الأقزام ..

يا أخي المسلم :

لا تنسَ وأنت تصوم رمضان أن الله يريد أن يجعلك بالصيام مثال « القوي الأمين » فحذار أن ينسلخ عنك رمضان وأنت « الضعيف الخائن » !

يا أبناء الأمة :

لا تنسوا وأنتم تصومون رمضان أن الله يريد أن يجعلكم بالصيام قوماً ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ فاحذروا أن ينسلخ عنكم رمضان وأنتم ممن ينطبق عليهم قول الله ﴿ وإذا رأيْتَهُم تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْتَنْدَةٌ يَتَحَسَّبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) .

(١) المنافقون : ٤ .

رمضان شهر الحرية

« في الحرية تمام العبودية ، وفي تحقيق
العبودية تمام الحرية »

« احمد بن خضرويه »

ليست الحرية كما يتوهمها اكثر الناس مقصورة على نوال الشعوب حقها في
السيادة والاستقلال ، فتلك هي الحرية السياسية ، ووراءها حرية الأمة في تفكيرها
وثقافتها واتجاهاتها الانسانية الكريمة .

وليست الحرية كما يظنها كثير من الشباب أن ينطلق الانسان وراء
أهوائه وشهواته ، يأكل كما يشاء ، ويفعل ما يشاء ، ويحقق كل ما
يهوى ويريد ، فتلك هي : الفوضى أولاً والعبودية الدليلة أخيراً ..

أما انها فوضى ، فلأنه ليس في الدنيا حرية مطلقة غير مقيدة بقانون أو نظام ،
بل كل شيء في الدنيا له قانون يسيره وينظمه ، وحرية الفرد لا تصان إلا حين تقيد
ببعض القيود لتسلم حريات الآخرين ، ومن هنا كانت الحكمة من الشرائع والدساتير
والانظمة والقوانين .. خذ لذلك مثلاً قانون السير في المدن الكبرى ، هل تستطيع
أن تسير بسيارتك إلا وفق السهام التي تحدد اتجاهك في السير ؟ وخذ لذلك مثلاً
قانون الراحة العامة : هل تستطيع أن تغني بعد منتصف الليل كما تشاء في الشوارع
الآهلة بالسكان ؟ وخذ لذلك قانون حماية الاستقلال : هل تستطيع أن تبث من
الآراء ما يؤدي الى الانتقاص على أمن الدولة وتهديد سلامتها ؟ هل تستطيع أن

تدعو إلى الصلح مع العدو ، وأمتك في قلب المعركة ؟ هل تستطيع أن تتاجر مع العدو أو تهرب إليه منتجات بلادك دون أن تتعرض للعقوبة التي قد تصل أحياناً إلى حد الإعدام ؟

إن تمام الحرية لا كمالها قد يكون بالمنع أحياناً . فالمريض حين يمنع عن الطعام الذي يضره ، إنما تحد حرите في الطعام مؤقتاً ، لتسلم له بعد ذلك حرته في تناول ما يشاء من الأغذية . والمجرم حين يسجن ، إنما تحد حرته مؤقتاً ، ليعرف كيف يستعمل حرته بعد ذلك في إطار كريم لا يؤذي نفسه ولا يؤذي الناس .

ثم إن الإنسان لا يعيش وحده ، وإنما يعيش جزءاً من مجتمع متماسك ، يؤذيه كله ما يؤذي بعضه ، وقد ضرب رسول الله ﷺ لذلك مثلاً من أروع الأمثلة بقوم كانوا في سفينة وكان بعضهم في أعلاها وبعضهم في أسفلها ، وكان الذين في أسفلها ، يأخذون الماء من فوقهم ، فقالوا : لماذا لا نخرق في مكاننا خرقاً نأخذ منه الماء من البحر رأساً ؟ قال عليه الصلاة والسلام : «فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً» إنه مثل كريم من معلم الإنسانية الأكبر يضع فيه الحد الفاصل بين الحرية الشخصية التي لا تؤذي أحداً ، وبين الحرية التي تؤذي المجتمع وتعرضه للانهيار إذا أطلقت يد صاحبها فيها كما يشاء^(١).

وأما أنها العبودية ، فلأن تمام الحرية هو أن لا يستعبدك أحد ممن يساويك في الإنسانية أو يكون دونك فيها ، وفي الفوضى التي يعبر عنها بعض الناس «بالحرية الشخصية» عبودية ذليلة لمن هو مثلك أو دونك من قيم الحياة ومادتها ..

حين تستولي على الإنسان عادة الإنطلاق وراء كل لذة ، والإنفلات من كل قيد ، يكون قد استعبدته اللذة على أوسع مدى ، وأصبح أسيرها يجري في الحياة تحت إرادتها ووحيتها ، لا يعمل إلا ما تريد ، ولا يستطيع فكاً كما مما تهوى .. فما هذه الحرية التي تنقلب إلى عبودية لأهون ما في الحياة من قيمة ومعنى ؟ .. لئن كانت قيمة الإنسان بمقدار ما ينال من لذائذه ، فإن الحيوان أكثر منه قيمة وأعلى قدراً !

(١) أنظر هذا المعنى كاملاً في «أخلاقنا الاجتماعية» ، ص ٦٦ - ٧٣ للمؤلف .

ان الحيوان هو الذي يسعى وراء لذته بلا قيد ولا هدف ، ومهما جهد الانسان أن ينال من لذائذه ما يهوى فإنه ملاق في سبيل ذلك - رغم أنفه عوائق تمنعه من بعض ما يريد ، فهل يزعم أحد أن الحيوان الذي لا يعوقه دون استكمال لذته عائق ، أكثر من الانسان حرية : فهو أكثر منه سعادة ؟ !

وحين ينطلق الانسان وراء فتاة يهواها ، أو وراء الغانيات يشبع بهن لذائذه ، يستطيع أن يزعم أنه حر من سلطانهن ؟ ألا تراه أسير اللحظات ، رهن الإشارات ، شارد اللب ، أقصى أمانيه في الحياة بسمه من حبيب هاجر ، أو وصال من جسم ممنوع ؟ أية عبودية أذل من هذه العبودية وهو لا يملك حريته في الحب والكراهية ، والوصل والمنع ، والرضا والغضب ، والهدوء والاضطراب ؟

وحين يسترسل الانسان في تناول المسكرات يعب منها ما تناله يده حتى تتلف أعصابه وصحته وتسلب عقله وكرامته ، أيزعم بعد ذلك أنه حر ؟ أهناك أبشع من هذه العبودية لشراب قاتل وسموم فتاكة ؟

وقل مثل ذلك في التهالك على المال والجاه ، والتعصب للزعيم والقائد ، إن كل ذلك حين يستولي على قلب الانسان ونفسه ينقلب إلى عبودية ذليلة ، وكل هوى يتمكن من النفس ، حتى تكون له السيطرة على الأعمال والسلوك ينقلب بصاحبه إلى عبودية بشعة لا نهاية لقبحها . ومن أعجب أساليب القرآن تعبيره عن مثل هذه الحالة بقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ ^(١) ، إن الهوى عند أمثال هؤلاء له خصائص الألوهية في نفوس المؤمنين .. أليس الإله هو الذي يعبد ويطاع ، ويخشى ويرتجى ؟ وأليس أصحاب الأهواء والشهوات قد خضعوا لأهوائهم وأطاعوها فيما تحب وتكره ، فلا يستطيعون إغضابها ولا معارضة اتجاهاتها ؟ .

ليست العبودية قيداً ولا سجنًا فحسب : فهذه أهون أنواع العبودية وأسرعها زوالاً ، ولكن العبودية الحقة : عادة تتحكم ، وشهوة تستعلي ، ولذة تطاع . وليست الحرية هي : القدرة على الانتقال من بلد إلى بلد ، فتلك أبسر أنواع الحرية وأقلها

(١) الجاثية : ٢٣ .

ثمناً ، ولكن الحرية الحققة : أن تستطيع السيطرة على أهوائك ونوازع الخير والشر في نفسك ، وإن الحرية الحققة ، أن لا تستعبدك عادة ولا تستذلك شهوة .

بهذا المعنى كان المؤمنون المتدينون ، أحراراً لا تحد حريتهم بحدود ولا قيود . إن الدين حرر نفوسهم من المطامع والاهواء والشهوات ، وربط نفوسهم بالله خالق الكون والحياة ، وقيد إرادتهم بإرادته وحده ، والله هو الحق وهو عنوان الخير والحب والرحمة ، فمن استعبده الحق والخير والرحمة كان متحرراً من كل ما عداها من صفات مذمومة .

وإذا كان لا بد للإنسان من أن تستعبده فكرة أو نزعة أو خلق ، فالذين يستعبدهم الحق خير وأكرم ممن يستعبدهم الباطل . والذين تستعبدهم نزعة إنسانية كريمة تستمد سموها من الله ، أكرم ممن تستعبدهم نزعة شهوانية يمتد نسبها إلى الشيطان . والذين يخضعون لله ويمثلون أمره ونهيه ، أفضل وأكمل وأعقل ممن يخضعون لامرأة أو كأس أو مال أو لذة ، ويمثلون لأمر إنسان يخطيء ويصيب ، ويعلو ويسفل ، ويحسن ويسيء ...

أفلا ترى معي بعد هذا سخف بعض التقدميين الذين يابون أن يناديهم الناس باسمائهم كما سماهم آباؤهم «عبدالله أو عبد الجواد» مثلاً ، ويأنفون في زعمهم— أن يوصفوا بالعبودية ؟! أفلا ترى هؤلاء الذين يرفضون عبوديتهم لمن لا يملكون لأنفسهم خروجاً عن سلطانه ؛ ويقبلون عبوديتهم لأحقر شهوة وأحط رغبة ؟ .. ألا ترى هؤلاء يستحقون منك الإشفاق والرثاء ، أكثر مما يثيرون في نفسك السخط والاستنكار ؟.

بهذا المعنى الدقيق للحرية والعبودية ، نستقبل رمضان على أنه شهر «الحرية» ، وعلى أن الصيام مدرسة لتخريج الأحرار بالمعنى العلمي الصحيح .

في رمضان جوع وعطش وفيه قيد وحرمان . ولكنه يمنحنا الصحة ، ويحررنا من العبودية . إن فيه تمرداً على عبودية الطعام والشراب ، وعبودية العادة والحياة الرتيبة ، والتمرد على العبودية أول صفات الأحرار ..

في رمضان امتناع عن اللذة اختياراً ، وهذه هي الحرية ، حرية الارادة أن تعمل ما يريد عقلك أن تعمله ، لا ما تحملك عليه عاطفتك وشهوتك ، وأن تمتنع عما تستطيع فعله ، فأنت إذن قوي الارادة ، ضعيف الهوى ، تضبط ميولك بأحكام عقلك ، ولا ينهزم عقلك أمام أهواء نفسك ، ومن اتصف بهذا كان جديراً بالنصر في كل معركة يخوضها .

ألا ترى الى قصة طالوت إذ منع جيشه من الشرب من نهر اعترضهم في المسير وهم عطاش منهكون ، فما أطاعه إلا قليل ، ولكن النصر كان على يد هذه القلة الصائمة المتحررة من سلطان الشهوة .. ﴿ فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني الا من اغترف غرفة بيده ، فشربوا منه الا قليلاً منهم ، فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله ، كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فهزمهم باذن الله ^(١) ﴾ لقد هزموهم بعد ان هزموا شهواتهم ، وتغلبوا على اعدائهم ، بعد ان تغلبوا على اهوائهم ... ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ^(٢) ﴾ .

وفي رمضان عبودية كاملة لله ، وهذه هي الحرية الكاملة للانسان ، إن أوسع الناس حرية أشدهم لله عبودية ، هؤلاء لا تستعبدهم غانية ، ولا تتحكم فيهم شهوة ولا يستذلهم مال ولا تضيع شهاتهم لذة ، ولا يذل كرامتهم طمع ولا جزع ... ولا يمتلكهم خوف ولا هلع ..

لقد حررتهم عبادة الله من خوف ما عداه ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ^(٣) ﴾ صدق الله .

(١) البقرة : ٢٤٩ - ٢٥١ .

(٢) النكبات : ٦٩ .

(٣) يونس : ٦٣ - ٦٤ .

فقد انقطع هؤلاء بعبوديتهم له عن كل خضوع لغير الله ، فاذا هم في انفسهم سادة ، وفي حقيقتهم أحرار ، وفي اخلاقهم نبلاء ، وفي قلوبهم اغنياء ، وذلك لعمرى هو التحرر العظيم ، وصدق رسول الله ﷺ حين يقول : « ليس الغنى عن كثرة العَرَض ، إنما الغنى غنى النفس » . وما أجمل قول ابن عطاء الله : « أنت حر لما انت عنه آيس ، وعبد لما انت له طامع » .

وبهذا المعنى الذي شرحناه تفهم تلك الحكمة البليغة التي صدرنا بها هذا المقال من كلام الشيخ الصوفي الكبير أحمد بن خضرويه : « في الحرية تمام العبودية ، وفي تحقيق العبودية تمام الحرية » .

وفي رمضان امتناع عن خلق ذميم ، وقول ذميم ، ومعاملة ذميمة ، فما أحلى هذه الحرية ؟

أنت في الخلق الكريم حر ، فلا تساق إلى محكمة ، ولا توضع في سجن ، ولا تنتقص في قدر ولا جاه !

وأنت في القول الكريم حر ، فلا تضطر إلى اعتذار ، ولا تتعرض للملامة ، ولا يملأ نفسك ندم .

وأنت في المعاملة الكريمة حر ، فلا تلوكك الألسن ، ولا تتحدث عن خيانتك المجالس ، ولا تعلق بذمتك الشبهات .

أيها الأخ المؤمن !

هذا هو رمضان يعلمنا الحرية بأجمل معانيها ، في جوعه وعطشه وقبوده وحرمانه .. أفلمست تعشق معي هذه الحرية التي تنطلق من الجوع والحرمان ؟ .. تعال معي إذا لنحلق في أجواء الحرية ! تعال معي لترتفع عن عالم العبيد ! تعال معي لنذكر أولاً كيف يعيش العبيد في دنيا العبودية ! .

أنظرن هؤلاء الساسة الكبار الذين يسرون شؤون العالم أحراراً ؟ .. ألا تراهم عبيد مطامعهم وشهواتهم السياسية ؟ فكيف يسعد عالم يقوده العبيد ؟ .

أنظن هؤلاء الذين يحكمون شعوبهم بغير إرادتها ، فيسومونها العذاب ، ويجرعونها الهوان ، أنظن هؤلاء سادة أحراراً ؟. ألا تراهم عبيد جشعهم ومطامعهم ؟ فكيف يسعد شعب يقوده العبيد ؟

أنظن هذه الجماهير المنطلقة وراء لذاتها حرة من كل عبودية ، ألا تراها ضحية غفلة مستحكمة ، وأسيرة لعادة قاتلة ؟ فكيف تنهض أمة لم تتحرر من آثار العبودية ؟.

أنظن هؤلاء « التقدميين » المفطرين أحراراً في تفكيرهم واتجاهاتهم ؟.. ألا تراهم صرعى لذة عارمة ، وعبيد شهوة جائعة ، قد نأت بهم بطونهم وشهواتهم عن عالم الأحرار ، وحرمتهم أكرم صفات المكافحين ، فكيف يزعم الحرية في فكره من جعل فكره عبداً لشهوته ؟ ..

هؤلاء هم العبيد في ثياب الاحرار ، فلنذكر الأحرار في عالم الحرية ..

ألا تذكر يوم جاء محمد ﷺ رسول الحرية ، بالحرية الكاملة في شريعة الله ، فحرر العرب وقذف بهم الدنيا هداة أحراراً مرشدين ؟ ..

ألا تذكر حريتهم في التفكير ، حتى قال عمر للحجر الأسود : « والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك ؟ »
ألا تذكر حريتهم في تمثل الفتح الاسلامي رحمة للشعوب وتحريراً للجماهير ، ونحطيماً للقيود .. فكانوا أرحم أمة وأصدقها في حمل لواء التحرير حتى قال من الغربيين من قال : « ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب ؟ »

ألا تذكر تحريرهم من العبودية للمال ، حتى لينفق أغنياؤهم أموالهم كلها وهم أحياء ، ويقول قائلهم لرسول الله ﷺ وقد سأله ماذا أبقيت لأهلك ؟ « أبقيت لهم الله ورسوله ؟ »

ألا تذكر تحريرهم من خوف الموت ، وحب الحياة ، حتى ليقول قائدهم (خالد) يرهب بهم أعداءهم : « لقد جئتكم يقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة ؟ »

بلى يا أخى ! إنك لتذكر هذا كله ، فلنحرص على أن نتعلم من رمضان
دروس الحرية ، لنعيش في هذه الدنيا أحراراً .. ولنعلم الإنسانية كيف تكون الحرية
﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون ﴾
بالله (١)

* * *

(١) آل عمران : ١١٠ .

فلسفة الصيام وأسراره

« الصيام رجولة مستعلنة وإرادة مستعلية »

هذه هي الامسية الثانية من أمسيات هذا الشهر الكريم ، الذي اعتاد الناس السمر فيه حتى الفجر ، وبالقوا في إعداد موائد الإفطار حتى السرف ، وأحاطوه بمظاهر الحفاوة والرعاية ، وقد يكون في هذه الظواهر ما يرضي عواطف بعض المتدينين ، ويعتبرونها دليلاً على تمكن الإسلام في نفوس المسلمين ، ثم يقفون عند هذا الحد ، يرضون من حقيقة الصيام بجوع النهار ، ومن حقيقة التكريم بمدافع السحور والإفطار ، ومن حقيقة التدين بإضاءة المآذن وامتلاء المساجد بالمصلين ، ولكن حقيقة الصيام مع هذا مطموسة الأثر في أوساط بعض الناس ، ومن أجله استساغوا لأنفسهم أن يفطروا غير متحرجين ولا متأثرين ، وأن يجاهروا بالإفطار أحياناً غير مباليين ولا خجولين ..

أسرار الصيام :

ولو أن الصيام كان تقليداً من تقاليدنا الموروثة ، لأوجبت آداب الاجتماع على هؤلاء أن يكونوا أكثر احتراماً لشعور الأمة وتقاليدها مما يبدون به الآن ... فكيف والصيام تربية روحية للشعب يتعلم به الترفع عن الشهوات ، والانطلاق في آفاق الخير ، والتجرد عن أوضاع المادة ، لتعمل الروح عملها في إسعاد المجتمع !

والصوم مع هذا وسيلة لتربية إرادة الأمة تربية حازمة، فما الصائم إلا رجل يمارس في نفسه التغلب على اللذة المباحة حتى يستطيع التغلب على اللذة الآتمة ، ويتعهد نفسه بالامتناع عن المأكول والمشرب مختاراً ، حتى يستطيع الصبر على الجوع والعطش حين يضطر إلى ذلك اضطراراً . والصيام فرض عملي للاشتراكية الإسلامية الرحيمة ، يجوع الناس فيه جوعاً واحداً ويعطشون عطشاً واحداً ، ثم يشبعون شعباً واحداً ورياً واحداً .. لا يمتاز بطن على بطن ولا فم على فم .. وبذلك يشعر بالجوع من لم تكن ثروته تسمح له بالجوع قبل رمضان ، ويحس من آلام الفقر والحرمان ما كان الغنى والترف والسرف يمنعه أن يحس به .

ولعمري هل هنالك في الدنيا اشتراكية عملية يستوي الناس بها جميعاً في الحرمان ثم الشعب كاشتراكية الصيام في شهر رمضان ...؟

أيها الصائمون المؤمنون .. إن رمضان امتناع عن الشهوة، وتخل عن اللذة، وسمو بالنفس ، وإطلاق للروح ، فما أجمل أن تكون السنة كلها رمضان ، إذا كان هذا هو معنى الصيام فيه .

ورمضان شهر الرجولة المستعنة التي تكبح جماح غرائزها ، وشهر الإرادة المستعيلة التي تأخذ باختيار وتدع باختيار ، فما أجمل أن يشمل رمضان الشعب بأسره ، حتى لا يبقى فيه شاب انهزمت رجولته ، وحتى لا يبقى فيه وان ضعفت إرادته عن تحقيق فكرته ، ما أجمل أن يشمل رمضان الناس جميعاً إذا كان الصوم فيه رجولة مستعنة ، وإرادة مستعيلة .

ورمضان فقر إجباري يتساوى فيه الناس جميعاً فيشركون في الآلام المنبعثة عن الشعور بالواقع ، لا عن التخيل بالفكر ، ومن الآلام تنشأ الرحمة ، ومن الرحمة تنبعث العدالة ، فما أجمل الحياة كلها حين تكون اشتراكاً واحداً في الألم والإحساس، وما أجمل الزمن لو كان كله رمضان يحقق أسمى ما في الاشتراكية وخير ما تدعو إليه ، وهو المساواة والاطمئنان ..

إذا كان رمضان سمواً ورجولة وتربية للإرادة ، واشتراكية عملية ، وهو في

الواقع نفحة من نفحات الصحراء العربية ولون من ألوان المعيشة فيها ، ألا يكون الذين يفطرون في رمضان من أبناء المسلمين قد أعلنوا إخلاصهم إلى الشهوة ، وانعتاقهم من الرجولة ، وأنهم في ميادين الإرادة ، وحربهم على الاشتراكية العلمية التي يترنم بها أكثرهم قولاً ودعوى ، ويحاربونها عملاً وتطبيقاً ...؟ ثم ألا يكونون بعد ذلك قد كفروا بأعظم مظاهر القومية العربية ..؟ ألا يحق لنا أن ندعو هؤلاء الكبار المفطرين بالأطفال الكبار ..؟ وندعو الصغار الصائمين بالكبار الأطفال ..؟

يا أبنائي الصغار ويا أخواني الشباب الذين تحملتم ضراوة الجوع ، وحر الصيف ، وشدة العطش ، فصمت مع آبائكم وأمهاتكم إعلاناً لرجولتكم وثباتاً لإرادتكم ... هنيئاً لكم يا أطفالنا الصائمين بالرجولة المبكرة ، والإرادة المنتصرة ، ولأنتم والله رجال الغد ، ينتصر الوطن على أيديكم حين يخسر قضيته على أيدي أولئك الذين انهزموا في أنفسهم قبل أن يهزموا في ميادين الكفاح والنضال ..

أيها الأخ المؤمن .. إذا كان الصوم كما ذكرت لك ، كان من حقنا أن نتساءل .. هل نصوم حقاً في هذه الأيام ؟ هل نحس بالآلام الجوع في أيام رمضان ، لنطرده عن الذين يحسون به طوال السنة كلها ؟ هل نمنع أجسامنا من الغذاء لمنع جوارحنا من الأذى والاعتداء ..؟ هل نشعر في الصيام بسمو أرواحنا ، فنأبى أن نسف وننحدر كما كنا قبل رمضان نسف وننحدر .. ؟

لقد كان رسول صلى الله عليه وسلم إذا جاء رمضان استعد له ، لا بالأكل والشرب ، ولا بالزينة والملبس ، بل بالطاعة والعبادة ، والجود والسخاء ، فإذا هو مع الله : العبد الطائع ، ومع الناس : الرسول الجائع ، ومع إخوانه وجيرانه : البار الجواد ، حتى لقد وصفه بعض أصحابه بأنه كان في رمضان أجود من الريح المرسلة .

وكذلك كان صحابته يفعلون ، والسلف الصالح ، من بعده يتصفون .. وبذلك كان رمضان عندهم موسماً تنسم فيه أرواحهم روائح الجنة ، وتطير فيه أفئدة المؤمنين إلى سماوات الحق ، وترتفع فيه جباه المصلين على رؤوس الطغاة الظالمين .. فلماذا لا نجعل رمضان كما كان يجعله رسولنا وأسلافنا ؟ . لماذا لا نجعل رمضان

موسماً نتزود فيه من الخير ما نستودعه أرواحنا حتى ننفق من ذخيرته السنة كلها..؟
فلا تكون أعمارنا إلا خيراً وبركة ، ولا تكون حياتنا إلا سمواً ورفعة ..؟

لماذا لا نجعل رمضان شهراً للثورة : الثورة على ضعفنا ، والثورة على جهلنا ،
والثورة على شهواتنا ، والثورة على فوضائنا ، والثورة على كل طاغية وباغية في الأرض..؟

أيها الصائمون .. أنتم في معركة من معارك النفس يحتدم فيها الصراع بين المادة
والروح .. فحذار أن تنهزموا.. حذار أن تجوعوا في النهار لتملؤوا بطونكم في الليل..
حذار أن تصوم بطونكم عن الطعام والشراب ، وتفطر ألسنتكم وأيديكم وأعينكم
على الإثم والكذب والسباب.. حذار أن تنشطوا للسمر وتكسلوا عن العبادة.. حذار ،
حذار من ذلك كله ، فإنها الهزيمة التي يشمت فيها الشيطان ولا يرضى عنها
الرحمن .

أقبلوا على الطاعة .. تزودوا من الخير .. استروحوا روائع الجنة .. إرفعوا
أبصاركم إلى السماء .. ترفعوا بنفوسكم عن الدنيا .. واذكروا دائماً قول رسولكم
صلى الله عليه وسلم : « رب صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش » .. «إنما
الصوم جنة (أي وقاية) ، فمن خاصمه أحد أو قاتله فليقل إني صائم ، إني صائم» .

اللهم اكتبنا عندك من الصائمين المقبولين ..

* * *

رمضان شهر المواساة

لقد انتهيت منذ دقائق من طعام الإفطار وحمدت الله على أن طعمت بعد جوع ، ورويت بعد ظمأ ، وهذه إحدى الفرحتين اللتين أخبر عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه » .

ومن تمام الفرح بالشبع والري فرحكم باجتماع الشمل في أمسيات رمضان ، فالعائلة لا يجتمع شملها على طعام واحد في وقت واحد إلا في رمضان غالباً ، حتى لو كان لها ولد غائب ، لا تشعر باللوعة على غيابه أكثر ما تشعر إلا في أيام رمضان .. فأنتم أيها الصائمون تشعرون في أمسية كل يوم من هذه الأيام بملذات تملأ نفوسكم غبطة وانشراحاً ، لا تملكون معها إلا أن تحمدوا الله عليها وتسألوه دوامها .. فكيف تظنون دوام هذه النعم ؟ وما هو تمام حمدتها .. ؟

أما أن الشكر على النعم لا يكون باللسان فحسب ، بل أن تعمل على أن يشترك معك في النعمة اخوانك ممن حرمتهم ظروف الحياة القاسية من الاشتراك فيها . وكم في الحياة من فقراء ليس غيرهم من ذوي الثراء أذكى منهم ولا أعلى همة ، ولا أكثر علماً .. ولكن قسوة المجتمع عليهم وإهمال الدولة لهم ، جعلهم يثنون تحت وطأة البؤس وهموم الحاجة ..

هؤلاء .. إن كانت الرحمة لهم واجبة في غير أيام رمضان ، فإنها فيه أوجب

وألزم . وإذا كانت وشائج الإنسانية تحتم على من يعرفهم أن يبر بهم ، ويمسح دموع أحزانهم ونكباتهم ، فإن المسلم أحق ببرهم ، وأن يرى سعادته بإسعادهم ومواساتهم ..

ألا تظنون أيها الناس أن مثل هؤلاء في الحياة كثيرون ؟ ألا تعتقدون أنهم في مثل مجتمعنا القاسي الظالم موفورين في كل حي ، وكل سوق ، وكل شارع ، وكل قرية .. ؟

لا تظنوا هؤلاء الذين يطرقون أبوابكم ، سائلين ، ويضايقونكم في الشوارع ملحين .. لا تظنوا هم الفقراء والمحتاجين من بينكم وحسب ، فما أكثر هؤلاء إلا محترفون يتكسبون بالسؤال . ولكن المحتاجين والبؤساء هم أولئك الآباء الذين لا يجدون من العمل ما يطعمون به أولادهم ... هن تلك النسوة اللاتي حرمن العائل ، وأبت عليهن عفتهن أن يضررن في البيوت سائلات ، أو في المصانع عاملات .. هم أولئك الأطفال الذين انتزع الموت منهم آباءهم .. ففقدوا بهم المعين والنصير ، هم أولئك اللاجئين الذين شردتهم عن أوطانهم ، القوة الجائرة ، والسياسة الجائرة ، والعزيمة الجائرة ، والخيانة السافرة ، فافتقروا بعد غنى ، وذلوا بعد عز ، وتفرقوا تحت كل كوكب ، وأتوا إلينا يطلبون منا بُلْغَةَ العيش ، فأبيناهم عليهم إلا أن نجرحهم معها غصصاً من الذلة والهوان !

هؤلاء وأولئك هم الذين توجب عليكم نعمة الله أن تذكروهم في هذه الايام ، لا أقول لكم تصدقوا عليهم . ولا أقول لكم جودوا عليهم . فالصدقة والجود من نوافل الإحسان في عرف الناس .. ولكن أقول لكم : كفروا عن سيئاتكم معهم بإشعارهم نعمة الأخوة ، وصلة الدين ، وعاطفة الرحم ، وقربى الجوار .

هؤلاء لولا تفريطكم وتفريط المجتمع بهم ، لما وصلوا الى ما وصلوا إليه من البؤس .

هؤلاء إن شعروا بمرارة الحرمان في غير رمضان مرة ، فإنهم يشعرون به في رمضان أكثر من مرة ... إنهم جيرانكم أيها الناس ، وما من عائلة منكم إلا وفي حيها عائلة أو

عوائل من هؤلاء البؤساء ... فتصوروا لوعتهم وحرقتهم : يرونكم تدخلون على بيوتكم بأصناف الخضر والفواكه والحلوى ، وتفوح من بيوتكم روائح الشواء والحساء كل مساء ، ويرون خروج أطفالكم حين ينتهون من الطعام إلى الشوارع هازجين لاعبين أمامهم . فلاأب منهم في صدره حسرة وزفرة ، وللأم في مآقيها دمعـة وعبرة ، وللابن من جوعه بكاء وعويل . هكذا أنتم تفطرون كل يوم .. وهكذا هم يمسون كل يوم ..

أعرف أباً كان ذا نعمة ومال وفير ، وقد عود أولاده الطعام الطيب واللباس الفاخر ، ثم شالت به كفة القدر ، فأعسر بعد يسر . جاء رمضان وهو لا يجد ما ينفقه كما كان ينفق من قبل ، وله من مكانته وحياته ما يمنعه من أن يسأل الناس صدقة أو ديناً ، فلم يكن يستطيع أن يقدم لعائلته ما تفطر عليه إلا الجبن والزيتون والقلوب ، واحتمل أبناؤه ذلك أول يوم وثانيه ، حتى قال صغيرهم في اليوم الثالث : يا أبت ! لقد أحرق بطوننا الجبن والزيتون . ونحن صيام نحتاج إلى ما يبل الأوام ، ويرطب الجوف في هذا الحر الشديد ، ويكاد يغمي علينا من روائح الطعام عند جيراننا... فلماذا لا تطعمنا كما يطعم جاراننا أولاده . وكما كنت تطعمنا من قبل ؟ . وطفرت دمعـة من عين الصبي . خرج من بعدها الأب إلى جانب مظلّم من الدار ثم بكى ! لأنه لا يريد أن تتفتح قلوب أبناؤه أول ما تتفتح في الحياة على غدر المجتمع وقسوة الناس .

أيها الصائمون المثرون :

إنكم تتفنون في تلوين مائدتكم كل مساء بأطاييب الطعام وأنواعه . وبعضه أو بل الأقل منه ، يمكن أن يطعم جياًعاً ويسعد عوائل ، ويكفكف عبرات بائسة حزينة ، فهل فكرتم فيمن حولكم من جيرانكم وأقربائكم ؟ .

هل فكرتم أن تستغنوا عن لون من هذه الألوان ، لتفطر عليها عائلة لا يعلم بحزنها وبؤسها إلا الله ؟ ..

أما والذي جعل الصيام مساواة بين الناس ، ومواساة للبؤساء ... لو أن كل صائم مقتدر أطعم صائماً معوزاً ، ولو أن كل عائلة موسرة أسعفت عائلة معسرة ، لما بقي فينا بائس ولا فقير ولا محتاج ، ولكان الصيام موسماً للخير لا تنتهي بركاته وحسناته . ولكننا خير أمة أخرجت للناس .

ففتشوا أيها الصائمون عن جيرانكم .. فتشوا عن أقربائكم .. فتشوا عن إخوانكم اللاجئين .. حذار أن تنسوا برهم وإسعادهم وإشراكهم معكم في نعمة الله .

أيها الصائمون : اذكروا حين تجتمعون مع نسائكم وأطفالكم لتملأوا بطونكم رياء وشبعاً ، اذكروا في هذه اللحظات جوع الجائعين ولوعة الملتاعين ، وعبرات البائسين ، اذكروا أن الله لن يقبل لكم صياماً ولا طاعة ، ومن حولكم بطون جائعة تستطيعون أن تشبعوها ، ونفوس حائرة تملكون أن تسعدوها . اذكروا أن رسول الله ﷺ قال : « ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع الى جنبه وهو يعلم » .

اللهم إنا نسألك التوفيق لكل خير والمزيد من كل بر ، وأوزعنا أن نشكر نعمتك التي أنعمت علينا ، وأن نعمل . صالحاً ترضاه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

أثر العبادة في تربية الأمة

تحتاج الأمم الناشئة الطامحة إلى بناء المجد والاستمرار في حياة الكرامة ، إلى نمط خاص من التربية يجب عليها أن تنشئ أبناءها عليه ، وتقيمهم بعد ذلك حراساً لعقيدها ، أمناء على رسالتها . ومن أبرز خصائص هذه التربية أن تقوم على عناصر ثلاثة وهي : القوة ، والحب ، والتواضع .

ونعني بالقوة : قوة الجسم والروح والعقل والنفس ، ونعني بالحب : النظر إلى أبناء الأمة نظرة حنو وعطف ، وإلى أبناء الإنسانية نظرة تعاون وتعارف ، ونعني بالتواضع : زوال الفوارق بين الطبقات ، فلا يترفع الغني على الفقير لأنه غني ، ولا يتعالى رجل الدولة على رجل الشارع لأنه حاكم ، ولا يتفاخر الناس بالأنساب والأثواب والأموال ؛ بل بالعمل الصالح .

إذا قامت التربية في الأمة على هذه العناصر الثلاثة : القوة والحب والتواضع ، كان لها من شبابها حصن يقيها غزوات الطامعين ، ومن أخلاق شبابها درع يقي الدولة أخطار التحلل والانحطاط والإسفاف المشين .

ومن حسن حظ أمتنا ، أن شريعتهما توخت هذا النمط من التربية ، وأرادت أن تنشئ فينا ذلك النمط من الشباب ، وأبرز ما يدل على ذلك ، العبادات ، التي جعلت أركان الاسلام ودعائمه . فالصلاة والصوم والحج ، والزكاة أيضاً ، ليست في

الحقيقة إلا وسيلة من وسائل التربية القويمة التي تحتاج إليها كل أمة في الحياة لتكون عزيزة كريمة .

تعال معي أيها الأخ الكريم لنفتش عن هذه العناصر الثلاثة في عبادات الاسلام ، لنرى هل تحققها بقوة ووضوح ؟ وهل نحن نحتاج إليها الآن لإنشاء جيل يصد عنها عوادي الزمن بقوة وسمو وخلق كريم ؟

تعال نفتش عن عنصر القوة في العبادات . أفلا ترى الضوء قوة للجسم ونشاطاً للروح ؟ ألا ترى الوقوف بين يدي الله في اتجاه واحد لكل مسلمي الأرض ، قوة تدل على وحدة المقصد ، واستقامة الطريق ، وارتفاع الرؤوس ؟ ألا ترى افتتاح الصلاة بهذا النشيد الالهي الخالد « الله اكبر » قوة للروح ، وقوة للنفس ، وقوة للجماهير ، تشعرها بأن الله أكبر من كل كبير ، وأعظم من كل عظيم ، وما من سلطان في الدنيا مهما اشتد بأسه ، إلا والله أكبر منه وأجل وأعظم ؟ .

ثم ألا نرى في قول المؤمن في صلاته « إياك نعبد وإياك نستعين » عهد قوة يقدمه المؤمن بين يدي ربه ألا يعبد إلا إياه ولا يستعين إلا به . فهو القوي بالله على ضعفه بالحياة ، وهو القوي بالحق على سطوة الباطل وإغرائه . ثم ألا ترى في هذه الصفوف المتراسة وراء إمام واحد تستمع لقراءته ، وتخشع لوعظه ، وتأنم بحركاته وسكناته ، مظهر قوة من تضامن الشعب ، واجتماع الكلمة ، ووحدة القلوب ، وسيطرة الطاعة والنظام ؟ فأية قوة تنشأ عليها الأمة أفضل من هذه القوة التي تربيتها الصلاة في نفس المسلم ويتلقى دروسها خمس مرات في اليوم ؟ .

وتعال معي إلى الصوم ، ألا ترى في تحمل الصائم طائعاً مختاراً لآلام الجوع والعطش والتعب ، قوة إرادة تجعله يواجه نكبات الحياة وحرمانها بقوة لا تعادلها قوة ، وبإرادة لا تعرف الخور ولا الهزيمة ؟

وتعال معي إلى الحج ، أفليس في خوض البحار ، وركوب القطار ، وامتناء السيارات ، وقطع الفلوات ، وتعرية الرأس والصدر واليدين والقدمين ، والمبيت في العراء ، والوقوف في الشمس ، والطواف حول البيت ، والسعي هرولة بين الصفا

والمروءة ... ألا ترى في ذلك كله : قوة روح ، وقوة جسم ، وقوة نفس ، وقوة إرادة ؟ وهل ترى أجمل وأنبّل من هذه التربية الجماعية التي يحمل عليها الناس جميعاً بين غني وفقير ، وكبير وصغير ، تشيع القوة بين أبناء الأمة حتى لا يبقى فيها ضعيف ولا وان ولا هزيل ؟

وألا ترى معي في الزكاة ، قوة إرادة ، إذ يخرج المزكي من ماله الذي جمعه كادحاً متعباً ، قسماً منه إلى إخوانه ، فيغالب شح نفسه ، ويتغلب على لذة جمع المال والحرص عليه ، ومن جاد بشيء وهو له محب وبه كلف ، كان أجود الناس بما لا يحب ولا يكلف به .

هذا هو عنصر القوة في عبادات الإسلام رأيته واضحاً جلياً .. فتعال نفتش عن عنصر الحب في هذه العبادات . ألا ترى معي في الصلاة واجتماع المؤمنين عليها ، داعية من دواعي الحب بين الناس ، إذ يجتمعون في أطهر مكان على أنبل غاية بين يدي رب العالمين ، لا رب أمة واحدة ولا شعب واحد ولا دين واحد ، رب العالمين ، الرحمن الرحيم ... الرحمن الذي امتلأ بالرحمة فلا مكان للقسوة والظلم ، الذي يفيض الرحمة على الناس من ذاته - وصيغة فعيل في اللغة العربية تدل على أصالة الوصف في صاحبه كما تقول فلان كريم وشريف - .

ثم انظر الى ما يحتم به المسلم صلاته إذ يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فيذكر عالم الخير في لحظات المناجاة ، ويذكر إخوانه في مشارق الأرض ومغاربها .

ثم يخرج من الصلاة بالرحمة والسلام فيقول : « السلام عليكم ورحمة الله » وقد بدأها بالتكبير ، فدل ذلك على أن قوة الإسلام قوة تنتهي بالرحمة والسلام دائماً .

وما أحوج الإنسانية إلى مثل هذه القوة الرحيمة تشمل أمم الأرض المعذبة البائسة .

والصوم ، أليس هو إحساساً بالجوع والعطش ، يدفعك إلى أن تذكر الجائعين

والعطشى ؟ أليس هو تربية عملية للحب بعد أن عجزت القوانين والتعاليم النظرية عن جعلها في الأمة أمراً واقعاً ؟

والحج ، أليس هو حباً لله ، حباً للرسول ، حباً للمكان الذي انبثقت منه أنوار الدعوة الإسلامية ؟ حباً للناس جميعاً ، إذ يترك بلده وأهله ليجتمع بهم ويأكل معهم ، وينام وإياهم على أديم واحد وبقعة واحدة ؟ .

أما عنصر التواضع في العبادات ، فلا أرى أروع من تواضع المسلم حين يخضع رأسه لله ، ويستوي في هذا الخضوع الناس جميعاً ، فليس في الركوع والسجود رأس يرتفع على رأس ، كما ليس في القيام في الصلاة نفس تخضع لنفس أو تتدنى عن نفس .

هناك في الصلاة في بيوت الله ، ترد إلى النفس الانسانية كرامتها . هناك يذكر العظماء شعبيتهم فيلتقون مع أبناء الأمة ، ويصطفون معهم جسماً لجسم ووجهاً مع وجه . هناك تقرر الشريعة في المسجد المساواة بين الناس ، من حيث تثبت الحياة بينهم في الواقع ، الفوارق والامتيازات ! .

أيها الشباب ! .. أتريدون القوة ؟ هذا هو سبيلها في عبادة الله والخضوع لجلاله ! .

أيها الاخلاقيون ! أتريدون الحب ؟ هذا هو سبيله في الصلاة والصوم والحج والزكاة !

أيها الاشتراكيون ! أتريدون المساواة ؟ هذا هو سبيلها في الصلاة ، حيث تستوي الرؤوس ، وفي الصيام حيث تستوي البطون ، وفي الحج حيث تستوي الأجسام ، وفي الزكاة حيث تستوي الأيدي .

أيها المصلحون ! أتريدون لأمتكم القوة ، ولجتمعكم الحب ، ولشعبكم المساواة والتواضع ؟ .. إذن ، فادعوا إلى العبادة وحبوها للأمة ، وكونوا من أول العابدين والخاشعين .

مؤسسة الزكاة

ها هو رمضان قد أوشك على الرحيل ، وها أنتم متأهبون لوداعه بصنوف من الخير والبر ، وقد كنت في صغري أشهد وداع الناس لرمضان بمظاهر من الإحسان والعون ، أبرزها إخراج الزكاة . فما يكاد ينتصف الشهر ، حتى يفتح الأغنياء صناديقهم لتوزيع زكاة أموالهم ، وتفتح بيوت الفقراء لأنواع البر من لباس وطعام ونقود . ويا ما أروع تلك الروح التي تغمر المسلمين في تلك الآونة : حب وتعاون وإسعاف وإنفاق . كأنما شمل رمضان القلوب فصامت عن الكره ، وشمل الأيدي فصامت عن البخل ، وشمل الأموال فصامت عن الاستقرار ، فإذا هي تنتقل من جيب إلى جيب ، ومن بيت إلى بيت . حتى إذا جاء العيد رأيت الوجوه طافحة بالبشر ، والأجسام كاسية بالنعمة ، والأيدي متصافحة متعاهدة على الحب . هكذا كنت أشهد وداع الناس لرمضان وأنا حدث صغير . ولا أدري ما إذا كانت هذه العادات الحميلة لا تزال قائمة موجودة . ولكن الذي أتيقنه ، أن بقية الإيمان التي حركت آباءنا وأجدادنا إلى البر والخير وإخراج الزكاة في رمضان ، لا تزال كامنة في نفوسنا تدفعنا إلى أن نفعل فعلهم ، ونحتم شهرنا بمثل ما كانوا به ينجتمون .

ليس للزكاة في الاسلام شهر معين يجب إخراجها فيه . ولكننا نغتنم فرصة من

فرص الطاعة لتذكير الناس بعمل من أجل أعمال الجودود . وبنظام من أحكم الأنظمة للقضاء على الفقر والبؤس . وليست الزكاة في الاسلام صدقة يخير المكلف بأدائها ، ولا نافلة يمنٌ مخرجها على الناس باخراجها .

كلا .. إنما هي في الإسلام : حق العون ، حق العدالة الاجتماعية التي لا يقوم مجتمع سعيد إلا بها ، حق الاشتراكية الاسلامية التي تقرر أن الناس مهما اختلفت ثرواتهم في الحياة يجب أن يكونوا مشتركين في الكرامة الانسانية التي أعلنها القرآن بقوله ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ .

والزكاة حق للفقير الذي يستطيع العمل فلا يجده ، والمساكين الذي لا يستطيع العمل لمرض أو آفة . هي حق الطبقات التي جاز عليها المجتمع فحرمها من التمتع بشمار جهودها . هي كما قال الله تعالى ﴿ حَقُّ مَعْلُومٌ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ .

ومن العجيب أن الإنسانية اليوم تسير نحو الاشتراكية بخطى عجل ، وما اهدت إلى أن هذا هو الطريق الأمثل لكرامة الإنسان في الحياة إلا بعد معارك وثورات وتطورات ملأت التاريخ بالفواجع . وهي حتى اليوم لم تتفق على حدود هذه الاشتراكية ، ولا على طريق واحد يجنبها العثار ، ويحقق لها الخير . ولكن الإسلام أعلن مبدأ الاشتراكية ، قبل أربعة عشر قرناً واضحة صريحة لا مجال لمنكر أن ينكرها إلا أن يكون غيباً أو مغرضاً .

ثم هو قد حدد طريقها الواضح . وجعل الزكاة مرحلة من مراحل تحقيقها . وكثيراً ما أدت الزكاة إلى تحقيق العدالة الاجتماعية ، ومكافحة مظاهر البؤس والشقاء في المجتمع .

هذا رسول الله ﷺ يرسل معاذاً إلى اليمن ليجمع أموال الزكاة فيها ، فيبعث إلى الرسول بأموال وافرة من زكاة اليمن لتوزع على مستحقيها في المدينة . فيبعث إليه الرسول ﷺ يقول « إنما بعثتك إلى اليمن لتجمع الزكاة من أغنياء اليمن وتردها في فقرائهم » . فيجيب معاذ :

« ما أرسلت تلك الأموال إلا بعد أن فاضت عن حاجة الفقراء فلم يبق عندي فقير واحد » .

وهذا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، يحمل الناس على سلوك الحق واتباع الشريعة ، ومن ذلك إخراج الزكاة ، فيحدثنا أحد عماله بقوله : « كنا نطوف بالصدقات على الناس فلا نجد من يقبلها » وما أعتقد أن بلداً من بلاد الاشتراكية اليوم على اختلاف حدودها تستطيع أن تزعم أنها أزالَت الفقر وقضت عليه ، فلم يبق عندها رجل تستشرف نفسه لأخذ المال .

وإذا كنا نحاول إصلاح الأوضاع السيئة في مجتمعنا ، وتحقيق المساواة في الكرامة الإنسانية بين أبناء قومنا . أفلا يجدر بنا أن نرجع إلى الزكاة نستعملها سلاحاً ماضياً نحارب به هذه المآسي التي تتمثل في محيطنا ؟ مآسي القسوة والبخل عند فريق ، والشقاء والحرمان لدى آخرين .

ألا يجدر بنا ونحن نتلمس طريق النجاة من فوضائنا وتأخرنا وتخلفنا عن ركب الحضارة ، أن نسلك هذا الطريق الآمن الذي يعتقد جمهور المكلفين بشرعيته فلا يحارون ولا يجادلون ؟ إن الزكاة مورد من المال عظيم تنفق منه الدولة والشعب على تحسين الأوضاع العامة ، ورفع مستوى العائلات الفقيرة ، وتأمين ضروريات الحياة لكل مواطن .

لقد آمنا جميعاً بحاجتنا إلى ذلك ، ولكننا نشكو قلة المال .. الدولة تشكو من ذلك . والجماعات الإصلاحية تشكو من ذلك ، ودعاة العدالة الاجتماعية يشكون من ذلك .. هذا مع قرب المال من أيدينا عن طريق مشروع لا يستطيع أكبر رأس طاغية أن يحول دون وصول الدولة إليه أو وصول الشعب إليه .

إن فريضة الزكاة هي نسبة اثنين ونصف بالمائة من مجموع الثروات الخاصة ، فتدروا كم تبلغ ثروة مدينة كدمشق مثلاً ، وكم يبلغ نصيب الزكاة فيها كل سنة ؟ وكم تستطيع دمشق بأموال الزكاة أن تنشئ لفقرائها وعمالها وفلاحها من المستشفيات والمدارس والمصانع والبيوت ؟ وكم ترفع من مستوى مئات العائلات في كل سنة ؟

فلماذا نضيع ذلك ونحن نلح بالشكوى ؟ لماذا لا نهض للاستفادة من هذه الطريق التي سنهنا الإسلام ونحن في أشد الحاجة إليها ؟ اني أتوجه بالخطاب في هذا الشأن إلى فريقين في الأمة : فريق الموسرين والمكلفين . وفريق الحكام والقادة والمصلحين .

أما الموسرون والمكلفون وخاصة المتدينين منهم الذين أدوا فريضة الصوم في هذا الشهر ، فاني أستحلفهم بإيمانهم بالله وإتباعهم لرسوله ، وتصديقهم بكتابه أن يخرجوا الزكاة كاملة غير منقوصة . وأن يجتهدوا في وضعها في مكانها الذي قدره الإسلام حتى يلقوا الله بقلب سليم وعمل صالح .

أيها الموسرون والمكلفون . ما أموالكم ولا ملذاتكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم إلى الله زلفى ، وتجعل لكم في التاريخ ذكراً عظراً . وتفتح لكم قلوب الشعب حباً وعطفاً . كلا ، إنما الذي يقربكم إلى الله العمل الصالح ، وإنما يعطر ذكركم في التاريخ أن تعملوا لإسعاد أمتكم وإنهاض بلادكم ، وإنما يفتح لكم قلوب الشعب أن تردوا إليه حقه وتكونوا معه أمناء فيما أودع الله بين أيديكم من مال فلا تحبسونه ولا تأكلونه .

ردوا إلى هذا الشعب البائس حقه من أموال الزكاة ، لتؤجروا عند الله ، وتذكروا في التاريخ ، وتحترموا من الشعب ، وإلا فهل تنتظرون إلا ثورة نفسية كامنة تلتهب ولو عن طريق الأيدي الاثيمة ؟ وهل تنتظرون إلا حكومة كحكومة أبي بكر تأخذ منكم الزكاة حرباً بعد أن أبيتم أن تعطوها سلباً ؟

أما فريق الحكام والقادة والمصلحين ، فاني أدعوهم إلى أن يعملوا على إيجاد مؤسسة شعبية باسم «مؤسسة الزكاة» تديرها خيرة أبناء الشعب ، وتشرف الدولة عليها لإشرافاً يمنع من تبديد أموالها ، وتعمل على تحقيق العدالة الاجتماعية فيها ، ورفع مستوى المعيشة والتعليم والصحة والأخلاق بين طبقاتها . إنكم إن فعلتم ذلك أيها المسئولون من قادة الإصلاح وحكام الدولة . دفعتم بأمّتكم سريعاً إلى طريق القوة والعزة والمجد .

إنكم تعيشون في دنيا تقوم على التنظيم وتحقيق التساوي بين المواطنين ، ولن تستطيعوا أن ترحموا الناس في دنياهم المنظمة العادلة ، وقد سبقوكم في ذلك مدى طويلا ، إلا إذا أسرعتم إلى تحقيق الاشتراكية التي جاء بها الإسلام ، وأولها أن تنظموا الزكاة مورداً ومصرفاً .

هذه ذكرى لمن يريد الخير ، ولن ألقى السمع وهو شهيد ..

رمضان يتحدث

من رمضان إلى الأمة الكريمة ^(١)

يا أبناء الأمة الكريمة !

لقد قدمت اليكم فاستقبلني جمهوركم بما يستقبل به قادم كريم من حسن الوفادة وجميل الحفاوة، وسخر بي بعض منكم فأبوا أن يستقبلوني إلا كما يستقبلون سائر شهور السنة ، وما جئت إلا لأعلمهم كيف يدخلون الحياة بأسلحة النصر !

فشكر الله لجمهوركم جميل حفاوته، وأجزل له وأقر مثوبته، وغفر للمتخلفين منكم عن ميادين الخير ، الساقطين في امتحان الرجولة ، المتنكرين لروح الجزيرة وطابع العروبة ورمز الايمان ، إن كانوا بالله ورسوله يؤمنون .

وإذا كان من واجب القادم أن يشكر من أكرمه ، فإن من واجبي خاصة ، أن أمحضكم النصيح ، وألقي إليكم من كريم الموعظة ما يكون كفاء إكرامكم وخالص عبادتكم .

(١) كتب هذا المقال في أعقاب الانتخابات الشهيرة التي جرت في دمشق في آب عام ١٩٤٧ .

يا أبناء الأمة الكريمة !

لقد قدمت إليكم عقب انتهائكم من « معارك » الانتخابات ! وإنها لمعارك حقاً ! فقد خلفت كل ما تخلفه المعارك الحقيقية من جروح ودماء وفتن وعداوات ، ولكن وآسفاه !

إن الأمم إنما تخوض المعارك مع أعدائها فترضى بكل نتائجها المؤلمة ، ليسلم لها شرفها ، وتنجو من البغي رقاب أبنائها ، فلماذا خضتم أنتم هذه المعركة ؟

سيقول بعض الذين حملوا لواءها : إنما فعلنا ذلك لنؤدي إلى الأمة حقاً واجباً ، ولنقدم للوطن خدمة خالصة ! وإنه لجميل من القول لو أيدته الواقع ! وكيف يكون ذلك ؟ وقد رأيت من قلب الحقائق وتشويه الوقائع ، وتغريب الذمم ، وتزوير إرادة الشعب ، واللجوء إلى أساليب المستعمرين ما يجعل الأمة مهضومة الحق من أمثال هؤلاء ، وما جعل شرف الأمة وسمعتها مضغة الأفواه ، مما جنته أيدي هؤلاء المزورين ! فإن كانت النيابة وسيلة إلى الخير فلماذا ارتضوا أن يسلكوا إليها سبيل الشر ؟ وإن كانت جولته في نصرة الحق فلماذا استعانوا فيها بقوى الباطل ؟ أو ليس سقوط الإنسان في الميدان بحلية الشرفاء الشجعان ، أفضل وأشرف من النجاح والغلبة بسلاح اللصوص و « الزعران » ؟

وهل من خدمة الأمة أن يتهم الذين سقطوا أو خافوا السقوط خصومهم مما يسيء إلى كرامة البلاد ؟ هل من خدمة الأمة أن يستر واهز يمتهم بالكذب والتهويز والمغالطة وإشاعة أقاويل السوء بما يعلمون في قرارة أنفسهم أنه منكر من القول وزور ؟

أهذا من الأخلاق ؟ أنسيتم دروس التاريخ ؟ ألم يطلب « علي » الخلافة ، فلما أصبحت لأبي بكر كان من أخلص أعوانه الصادقين ؟ ألم يركز خالد أعلام الاسلام فوق قلاع كسرى وقيصر ، فلما عزله عمر انخرط في الجيش يحارب جندياً مخلصاً جهاداً لله رب العالمين ؟

وإذا أبيتم أن تكونوا مثل آبائكم وأبطالكم الخالدين : أفلا أخذتم دروس

الوطنية الصادقة من أعدائكم المعاصرين ؟ ألم يقد « تشرشل » أمته الى النصر ، فلما خذلت الأمة حزبه في الانتخابات ، سلم للفائزين زمام الأمر ، ولم يتهم خصومه بالخيانة ، ولا أمته بالعقوق ، ولا تبجح أمامها بأنه هو الذي قادها الى النصر المبين ، ولولاه لكانت من الهالكين ؟ !

هذه واحدة يا أبنائي !

وأما الثانية ! فلقد رأيتمكم وأنتم في بدء عهدكم بالاستقلال ، لا تعرفون كيف تصونونه ، ولا كيف تقوونه ، ولا كيف تدفعون أذى أعدائكم عنه ! لقد ظننتم أن الاستقلال برلمان ووزارات وسفارات وعمران وولائم ! .

لا يا أبنائي ! ما هذه إلا مظاهر الاستقلال ! أما دعائمه التي يستند إليها فهي : رجولة وأمانة ، وسهر ، وتجرد عن حظوظ النفس ، ونزعات الأهواء ، فما هو نصيبكم من هذا ؟

لقد فتح لكم زعماءكم باب الإثم فأطلقوا عنان شهواتكم وأوردوكم حياض الرذائل ، تكرعون منها ما تشاؤون دون أن يقفوا في وجهكم ولو مرة واحدة ! زعماء منهم أن هذه حرية ! والحرية من لوازم الاستقلال ! وأن حد الشهوات — الانطلاق رجعية تنافي التقدم والتمدن ، فإلى أين تصلون إذا استمررتكم في هذا المنحدر ؟ وكيف تتكون الرجولة في الأمة إذا « ماعت » أخلاق الشباب ، فملؤوا الحانات ، وعربدوا في الطرقات ؟

ولقد أكلت أموال الدولة ، وأنفق كثير منها في الولائم وما لا يجوز ولا يباح ، ومنع كثير منها عن مشاريع الخير ، فأين هي الأمانة ؟

هل من الأمانة على أموال الدولة أن تمنح الإعانات الكبيرة لنواد يعترف منشؤها بأنها أنشئت لتجمع الطبقة « الأرستقراطية » حول موائد الخمر والرقص والقمار ، ثم تضيق أموال الدولة عن إقامة دار للعجزة تجمع شتات هؤلاء الذين يشوهون وجه العاصمة بثرثة ثيابهم ، ويؤلون ضمير الإنسانية بتسولهم ويؤسهم

وفاقتهم ؟ أهذه هي الأمانة أيها المسؤولون عن أموال الدولة ؟ !

ولقد تسربت الآراء الهدامة إلى عقول أبنائكم ، والأيدي الأجنبية إلى صفوف بعض هيأتكم ، والدسائس القتالة إلى قلوب جمهوركم ، فأين سهر المسؤولين ؟ وأين تيقظهم لمقاومة هذه الأمراض الدخيلة ؟ . بل أين يقظة المسؤولين في اختيار موظفي الدولة ؟ ألم يتركوا أعوان المستشارين وأذئاب المستعمرين يرتعون في الدواوين والدوائر ، بل يرقون إلى أعلى الرتب وهم هم الذين كانوا سلاح المستعمر وعينه ويده ورجله ؟

ولقد ملئت الدوائر بالأنصار والمقربين ، وفاضت بأنصاف الأميين ، بينما أقصي ذوو الكفاءات ، وغبن حملة الشهادات العليا ، ممن أثبت لهم كرامتهم أن يتزلفوا أو يتمرغوا على الاعتبار !

فهل هذا تجرد من حظوظ النفس ؟ وكيف تتقدم دولة قامت على المحاباة ، أو يستقيم استقلال بُني على الظلم وتقريب الجهلاء وإقصاء الأمناء !

وهذه ثانية يا أبنائي ؟ !

أما الثالثة ! فلقد رأيت النار تحيط بكم من كل جانب وأنتم عنها لاهون ! هذه فلسطين تكاد تفلت من أيديكم ، وها هي الشرارة الأولى تنذركم باندلاع النار وانفجار البركان ؟ ها هو بدء النزاع بين العرب العزل واليهود المسلحين قد ذرقنره.

فماذا أعددتُم لنصرة اخوانكم ؟ أين شبابكم يهيثون سواعدهم للنضال ، وأين رجالكم يهيثون أبناءهم للقتال ؟ وأين أغنياؤكم يفتحون صناديقهم للبذل ؟ وأين زعماءكم ينفخون في قلوب الجماهير نار اليقظة والاستعداد ؟ .

وأسفاه ! إني لا أرى إلا صرخات تذهب هباء ، واستعدادات تتجلى كل قوتها في مظاهرات يهتف فيها بضعة أطفال ، ثم لا شيء ! ثم غفلة ! ثم استهتار ! ثم إكباب على اللذة والشهوة ! وأعداءكم يضرمون النار في بيوتكم !

وهذه مصر تختصم إلى مجلس الأمن ، ويوشك أن يخذلها الباغون ، ويماطلونها في

الوصول إلى حقها ، فماذا أعددت لنصرتها يوم تحين الكريمة ؟

وهؤلاء أخوانكم في المغرب العربي : ثلاثون مليوناً يعاملون كما يعامل العبيد !
فماذا أعددت لنصرتهم ؟ وهل اهتم زعماءكم حقاً بمصيرهم فعملوا على رد عدوان
الباغين عنهم ^(١) ؟

وهذه ثلاثة يا أبنائي ! واني والله لأشفق عليكم أن أسترسل في التعداد ! وإن
أمثالها لكثير عندي !

يا أبنائي !

أنتم الآن تشهدون صراعاً رهيباً يدور حولكم ، وما هو والله الا للتعشي بكم
بعد أن يتغدى بعضكم ببعض ! وأنا لست يائساً من انتصاركم عليهم ! بل أنا
واثق أنكم لو أعددت سلاح المعركة لخرجتم منها ظافرين ! لقد شهدت آباءكم
يوم بدر . وشهدتهم يوم فتح صلاح الدين بيت المقدس . فطرد منها جموع
الصلبيين . وشهدتهم في معارك النصر كلها . فصدقوني يا أبنائي إن سلاحهم الذي
أدى بهم إلى النصر لم يكن إلا «الإيمان والأخلاق» .. أما الإيمان فقد عوضوا به
نقص عدتهم وعددهم ، وأما الأخلاق فقد كانت هي التي ألحقت الهزيمة
بأعدائهم .

يا أبنائي ! إنما تنتصر في ميادين النضال أخلاق الرجال لا أنوثة النساء ولا ليونة
الأطفال ! وإنما يرد بغي الأعداء كؤوس الدماء لا كؤوس الصهباء ! وروائح

(١) إن قضايا العالم الاسلامي كانت تهم استاذنا المؤلف رحمه الله وقد تضمن هذا الحديث
الكثير من مشاكل هذا العالم ، وقد تغيرت الآن بعض الظروف فحصلت بلاد المغرب
وغيرها على استقالاتها السياسي .

ونرجو الله تعالى ان يكتب للمسلمين العودة لعزتهم الكاملة .

الرصااص والبارود لا مدائح الحدود والنهرد ! والسهر في الخنادق والثغور ، لا السهر
في أندية الصفا ودور الإثم والفجور !

يا أبنائي !

أنتم خير أمة ، تتبعون أعظم قائد ، وتحملون أسمى رسالة ، وترثون أنبل
حضارة ، وتحرسون أغلى وطن ، وتواجهون أمكر عدو ، فلما أن تكونوا أهلاً لحمل
الأمانة فتكافؤا بأكرم حياة وأخلد مجد ! وإلا ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم
ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون
لومة لائم ﴾ .

وداعاً يا أبنائي ، فقد نصحت وأفصحت ، فسوف تذكرون ما أقول لكم
وأفوض أمري إلى الله .

* * *

قال رمضان :

وكذلك اذا أردت أن تعلم مقدار ما بلغته أمة من عظمة وارتقاء ، فافحص
زعماءها وانظر الى وجنتهم فيها ، والى نوع خدماتهم لها ، وانظر في ذلك نظر
الباحث المدقق لا تغررك الظواهر ولا تبهرك زخرفة ولا بهرجة .

واذا أردت أن تعرف أقدار الزعماء ، فقارن بين أقوالهم وأفعالهم ، وبين
ماضيهم وحاضرهم ، وفي الصلة بينهم وبين أمتهم ، فمن وجدته مسرعاً إلى العمل
أكثر من تسرعه في القول ، منسجماً ماضيه مع حاضره ، ثابتاً على مبدئه
من بداية أمره إلى آخره ، محبباً إلى الأمة ، متفانياً في مصالحها العامة ، فذلك هو
الزعيم الذي استحق السمع والطاعة والحب والإجلال .

وإذا شئت أن تبحث عن خلق الأمة ، وما هي عليه ، من طهارة ذيل
وشرف وإباء وعلم وحلم ، وكرم ووفاء ، أو عكس ذلك كله ، فانظر إلى خلق

قاداتها البارزين المتبوعين ، وبذلك تعلم ما خفي عليك من خلقها من غير تعب ولا عناء .

وإذا أحببت أن تعرف مبلغ إخلاص القائد فابحث عن نظرة أعداء الأمة إليه ومعاملتهم له ، فإذا ألفيتهم ينعتونه بالعدو الشريف ، ويعاملونه معاملة الخصم العنيد الشديد ، فذلك الذي أخلص للأمة جهاده ، وصدقها وده ، وبذل لها روحه وجسده .

وإذا وددت أن تعلم أي القادة أنفع لأمته ، فانظر إلى الذي يبسط منهم للحق رداءه ، ويمد إلى التعاون يده ، ويتناسى أنانيته ولذته ، ويطاء بتقديمه شهوات الحكم والرئاسة حين يدعو داعي الجهاد لإنقاذ البلاد ، فذلك الذي بلغ الذروة في القيادة ، وكانت حياته بركة للأمة ، وجهاده رحمة للعامة ، وفقده ثلثة في كيان الوطن لا يسدها إلا عظيم مثله يقتفي أثره .

ذلك هو مقياس عظمة الأمة وخلقها والزعامة فيها ، وهو مقياس دقيق حقيقي ، ما زلت أستعمله منذ أربعة عشر قرناً إلى اليوم من غير أن يخطيء مرة واحدة .

قلت : إنك قد شهدت الغابر والحاضر ، ورأيت بعينك عز الإسلام وذله ، فكيف أنتج مقياسك في أمتنا الحاضرة وزعمائها ؟

فتأوه قليلاً ثم قال : يا أسفا على أمتك ! ويا حسرتا على زعمائها ! لقد هلك التابع والمتبوع .

تسألني عن أمتك وزعمائها ، وهل كانت الأمة إلا كما أحب الزعماء أن تكون ، وهل لنا أن نحكم عليها بخير أو شر وهي في قبضة الزعماء يصرفونها كما يحبون ؟ كلا ! لا تسألني عن الأمة ، ولكن سألني عن زعمائها كيف يتصرفون !

لقد طوّفت في أنحاء الدنيا قديمها وحديثها ، وأدركت كثيراً من الأمم في شبابها وهرمها ، فما رأيت أعجب من أمر زعمائكم الحاضرين .

في كل أمة من أمم الأرض نرى زعماءها أيقاظاً للنواب ، حفاظاً للعهد ،

شعلة من الذكاء متقدة ، وحركة دائبة غير منقطعة . يصرفون الأمور بعين البصيرة ، ويقودون الأمة إلى وضوح الحقيقة ... إن دهمتهم داهية كانوا يداً واحدة في درء البلاء ، وإن شعروا بعدوان باغ كانوا جميعاً إلباً على الأعداء . يضحون بالأنفس والأموال في سبيل أقوامهم ، راضية بذلك نفوسهم ، منشرحة أفئدتهم ، وكذلك عهدنا بالزعماء يتعبون ليهنأ المجتمع ، ويشقون لتسعد البلاد ، ويموتون لتحيا الأمة .

أما زعماء أقطاركم المختلفة فقد نشأوا في أمة ضععتها نكبات الدهر ، وفرقتها غير الأيام ، وأفسدتها سياسة الحكام ، ثم رأوا بأعينهم كيف توالى المصائب ، واعتدت على حقوقها الأمم ، ولعبت فيها الدسائس ، فكان ذلك كله كافياً لأن يوجب في أفئدتهم نار الجهاد ، ويولد في نفوسهم الشعور بالمسئولية الكبرى ، ويدفعهم إلى الإنقاذ والإصلاح بإخلاص وإيمان ، حتى يخلصوا الأمة من براثن الأغيار ، ويوقظ فيها الحمية لكرامتها ، والحيلة لعزتها ، ويكونوها تكويناً جديداً قائماً على اليقظة والعزة والخلق والتقوى ، لتنبأ مكانتها تحت قبة الشمس . ولكن ماذا فعل زعمائكم ؟

لقد أخرجني والله صنيعهم ... وأنا لا أريد أن أذكر لك الآن كل ما في سجلاتهم من أعمال سيحكم عليها التاريخ . ولكنني أستحلفك بربك : ألم يحدروا أعصاب الأمة ويقضوا على استعدادها للنضال ! ألم تفرقهم دسائس الأعداء وشهوات الحكم ومظاهر الزعامة ؟ ألم يحولوا الأمة عن طريق العفة والتدين والحياة والقوة ، إلى طريق ملتوية معوجة ، أولها شهوة وأوسطها شقوة وآخرها ردى وذلة ؟

ألم يؤثروا لذة الراحة على عناء الجهاد ، ويفضلوا عيش الترف والعظمة الكاذبة على عيش التقشف والضي في سبيل الله ؟ ألم يتفرقوا والبلاد في شقاء والأمة في بلاء ؟ أنظر ... إنهم يتقاتلون ، إنهم يتخاصمون ، إنهم ينهش بعضهم أعراض بعض ، والعدو الجاثم على الصدور ، المحتل للبلاد ، المدجج بالسلاح ، يقف منهم موقف المتفرج الضاحك الساخر ! يا لسوء المنقلب ويا لبئس المصير .

قال رمضان : قد تدهشك ثورتي هذه في وجه زعمائك ، وقد تقول إنك

سلكت سبيل التعميم ، وكان الأولى بك أن تخصص ، ولكني أحب أن تعلم حق العَلَم ، أن أمتك لا تزال فقيرة في قاداتها ، محتاجة حتى إلى قائد واحد فقط يستجمع كل شروط الزعامة والقيادة !

قلت : والآن يا رمضان ، أدل الينا برأيك في هذا الليل الحالك .

قال رمضان : لسمع مني بارك الله فيك ... كنت البارحة أتجول ليلاً في مجتمعات للصائمين أدون عنهم مذكراتي ، فاذا بي ألح شاباً طويل القامة نحيل الجسم مشرباً وجهه بحمرة ، وهو جالس إلى مكتبه في غرفة يشع منها بصيص من النور ، ويجانبه آخر ما أحسب إلا أنه زميله ، فاقتربت منهما لأسمع حديثهما وإذا بالشاب يقول لزميله بلهجة تمتلئ قوة وتفيض حماسة :

نحن أمة عرفت بالإباء وشهرت بالرفعة ، فحرام أن نذل لعلوج الغرب وطواغيتهم . نحن أمة ملكت العالم واقتادت زمامه ، فحرام أن يتحكم فينا اليوم من كانوا بالأمس يرجون منا المعونة . نحن أمة لا تزال تجري في عروقها دماء العزة ، فحرام أن نستكين ، وفيها هذه الدماء تجري ! نحن أمة صهرتها حوادث الدهر حتى ابيض فاحمها ، فحرام ألا نحسن تطبيق ما تعلمناه على ما نعمله . نحن أمة ألقى الزمن الأثقل أمرها إلى أيدي من تعلم من الزعماء . فحرام أن لا نبههم إلى خطيئتهم . نحن أمة لا تزال حية فتية ، فيجب أن نسير الزعماء كما نعتقد ، لا أن يسيرونا كما يحبون !

قال رمضان : فما كدت أسمع هذا حتى انتفضت انتفاضة المحموم ، وأيقنت أن الغابة لا تزال مليئة بالأسود ، وأن أمة فيها مثل هذا الشاب بقوة إيمانه ووفرة حميته لن تموت أبداً ، غير أن المشكلة الكبرى .. هي مشكلة الزعماء . فهل لك أن توصل ندائي إلى مسامعهم ؟

قلت : سمعاً وطاعة . قال :

قل لزعمائك : إن الخير كامن والقوة متوفرة ، فهل لكم أن تنعشوا الخير غلصين ، وتستمدوا القوة من معادنها لتستعملوها في رفعة الأمة ؟

قل لزعمائك : إن الأمة أسلمت إليكم أمرها ، ومدت اليكم بالمعونة يدها ،
وإن تفرقكم هذا هو بتر ليدها وطعنة نجلاء في فؤادها ، فكيف تبثرون يداً أحسنت
إليكم ، وكيف تطعنون فؤاداً حتى عليكم ؟

قل لزعمائك : من لم يتعظ بالتجارب فهو غافل ، ومن لم تفرعه الحوادث
فهو خامل ، ومن يركب رأس شهوته فهو لنفسه قاتل ، ومن كان أحد هؤلاء ،
كيف يتقدم الصفوف أم كيف يقود الجحافل ؟

قال رمضان : هذا حديثي إليك اليوم وربما حدثتك حديثاً غيره في وقت آخر.

• • •

رمضان يودّع

قال رمضان :

...وأرى أن أختم حديثي معك بحديث جامع أبئك فيه آلامي ، وأودّعك فيه عبراتي ، وأطلعك على ما يجول بخاطري ، فإن أحببت نشره على الناس فعلت ، وإلا فأنت ورأيك ...

كل أمة من الأمم لها تقلبات كثيرة من شباب وهرم ، وقوة وضعف ، وعزة وذلة ، ولكل دور من هذه الأدوار التي تمر بها عوامل طبيعية تؤدي إليه ، فقد تكون الأمة ذات عز يطاول الثريا رفعة وثناء ، ومدنية تصلح نظم المجتمع وتضمن لأبنائه السعادة فيه ، فما تزال في تقدم ونجاح واتساع ملك حتى يسري إلى مجموعها داء التواكل ، ويدب في نفوسها ديبب التخاذل ، وتخدر أعصابها شهوات الأهواء ولذائذ الحياة الفانية ، فتتحدر إلى الهاوية انحدار جلمود من الصخر حطه السيل من علّ ، ولا تزال في الانحدار حتى تصل إلى القرار ، تتجرع غصص الموت الدليل زمناً مديداً ، بعد أن طعمت نعمة الحياة الكريمة أمداً طويلاً .

وقد تكون الأمة منهوكة القوى ، خائرة الاعصاب من نكبات توالى عليها حتى أفقدتها روح الحياة أمداً ليس بالقليل ، ثم ما تلبث أن تفتح أعينها للنور ،

وتلقي عن كواهلها أردية الخمول ، وتنهض نهضة الأسد الكاسر إذا أطلق من
إساره ، فتمحو بالجهاد في أعوام قليلة ، ما لحقها من وصمة الخمول قروناً عديدة ،
وتأخذ مكانها بين الأمم الحية أو تنزع قيادتها لتحقيق ما تتطلبه البشرية المضطهدة
من حق وعدل وسلام .

وفي كلتا الحالتين يجب أن تكون لها عين بصيرة تسوس بها أمورها على أساس
الحكمة . ففي حالة قوتها يجب عليها الاعتبار بمن كان قبلها من أمم ملكت شؤون
العالم زمناً ثم أبادها الدهر ، فتبحث عن أسباب قوتها فتأخذ بها ، وعن أسباب
انحطاطها فتتخدر منها . وفي حالة ضعفها يجب عليها البحث عن الوسائل التي
رفعت من شأن الأمم التي سبقتها فتتخذ منها سلماً تصعد به إلى سماء العظمة
والرفعة . ولا أطيل لك في ضرب الأمثال على صحة هذه النظرية ، ففي تاريخ
أمتك المسلمة وما مر عليها من أدوار مختلفة ما يجعلك تؤمن بما قررت لك ، إيماناً
لا يخالطه ريب .

وأي عاقل ينكر أن من أكبر الأسباب التي رفعت شأن المسلمين الاول
خشيتهم من الله جل جلاله ، وانصرافهم عن ملذات الحياة المهلكة ، ونظرهم
جميعاً إلى غاية واحدة ومطلب أسمى ، ذلك هو إعلاء كلمة الله في ربوع الأرض ،
ونشر لواء الإسلام خفياً فوق الرؤوس . فلما خلف من بعدهم خلف أضاعوا
الصلاة واتبعوا الشهوات ومزقوا شمل الوحدة التي أنعم الله بها عليهم ، أذاقهم الله
كأس الذل مرعاً ، وما زالوا يعانون آثاره حتى اليوم . وأنتم الآن تبرؤون بما لحقكم
من ذلة ، وتودون النهوض مما وقعتم فيه من كبوة . وأنا لا أنكر أن روح البقطة قد
نشطت فيكم وبعثت من جديد مرة أخرى ، ولكن الذي يستثير شجوني أن لأرى
لكم تلك العين البصيرة التي يجب أن تسوسوا بها أموركم ، بل أراكم تتخبطون في
دياجير من الفوضى ، وتسرون في طرق مظلمة خربة ، وتتجهون في تفكيركم
اتجاهات متباينة ، فكيف يرجى لكم النجاح في نهضتكم وأنتم على هذه الحالة
المؤسفة ؟

تودون استعادة ما كان لآبائكم من مجد كللوا به جبين الدهر شرفاً وفخاراً ،

ولكن اين انتم من آبائكم بالأمس ؟ «شتان ما بين اليزيديين في الندى» !
فأولئك قوم جعلوا رضا الله فوق أهوائهم ، وإطاعته فوق شهواتهم . أولئك قوم فهموا
الاسلام قانوناً كلياً لا يتجزأ فأذعنوا لكل صغيرة وكبيرة فيه برضا وطيب نفس ...
أولئك قوم كانوا يتوقون الذنوب كما تتوقون اليوم جرائم الأمراض ، حتى لقد
روى عنهم التاريخ أنهم كانوا في معركة فأبطأ عليهم النصر فأخذوا يتذاكرون فيما
عسى أن يكونوا قد ارتكبوه من ذنوب ، ففطنوا إلى أنهم لم يعملوا بسنة السواك في ذلك
اليوم ، فأخذوا يشوصون أفواههم بالسواك ، حتى ظن العدو أنهم يرهفون أسنانهم
لأكلهم أحياء ، فأنهزم شر هزيمة !

أولئك قوم كانوا يرون الحياة وسيلة لنيل الدرجات العلى في الآخرة ، فكانوا
يردون حياض المنايا ونفوسهم ظمأى إلى ارتشاف كأس الشهادة ، يدعون الله -
صباحاً ومساءً - أن لا يردهم إلى بلادهم ولا إلى أهلهم ولا إلى أولادهم .

أولئك قوم كان لهم من خشية الله ما كفل لهم انتظام الأمور في مجتمعهم ،
فكان الأمير منهم أشد حنواً على رعيته من الأم على ولدها . وكان العالم منهم لا
يألو جهداً في إرشاد العامة إلى مناهج الحق ، ولو ناله في ذلك أذى أو عذاب ،
وكان الغني منهم يحد بالمال راضية به نفسه ، لا يبغي بذلك إلا رضا الله جل شأنه ،
وكان التاجر منهم صادقاً أميناً عفيفاً في بيعه وشرائه . وكانت المرأة فيهم عفة
الفؤاد طاهرة الذيل على آداب وانقياد لأحكام الله .

أولئك هم آباؤكم وأولئك هم الذين انتصر ثلاثمائة منهم على ألف من المشركين
في وقعة شهدتها بنفسي . وكانت أول نصر أحرز في الإسلام . وأولئك هم أبطال
القادسية واليرموك وحطين وغيرها من المعارك الشهيرة في التاريخ .

أما أنتم اليوم : فأمرؤكم ظالمون ، وعلماءؤكم ناثمون ، واغنياؤكم ضنينون ،
وشبابكم مقتون ، وتجاركم غشاشون كذابون ، ونساؤكم متبرجات منصرفات عن
هدى الله . أما أنتم اليوم ففي غرور يملأ أدمغتكم ، وفي شهوات تستولي على
افتدتكم ، وفي غفلة غشت على أبصاركم . ترون الدنيا أعز ما يطلبه الرجال ،
والترف أسمى ما تطمح إليه الأنظار ، والمال والجاه الكاذب أحق ما يقتتل عليه

الابطال ، فلا غرو أن تخضع لآبائكم الدنيا وأن تخضعوا أنتم للدنيا ، ولا غرو أن يعطيهم الله ما أرادوا إذ كانوا معه كما أراد ، وأن يسلب منكم ما أعطاهم إذ كنتم مع الأهواء كما تريد . ولا غرو أن يملوا إرادتهم على العالم وأن يملوا عليكم إرادتهم شذاذ العالم . ﴿ أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ ؟ ﴾ ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ؟ ﴾ ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ؟ ﴾ .

ذلك هو الفرق بينكم وبين آبائكم ، وذلك هو السبب الحقيقي لفشلكم في نهضتكم ، بينته لك على حقيقته ، والآن وقد أزمعت على الرحيل اليوم ، فلي إليك رجاء في إبلاغ كلماتي هذه إلى أسماع إخوانك المسلمين :

أيها المسلمون : كيف ترضى أمة لها دين وعقل وذكاء ، أن يغلبها أقوام في طباعهم جفوة ، وفي قلوبهم قسوة ، وفي خلقهم نبوة ، تتنافى آدابهم مع آدابها ، ولا تلتئم أذواقهم مع أذواقها ، ثم هم على إشراك بالله وكفر بدينه ؟

أيها المسلمون ، إن كان اعداؤكم ملكوا الدنيا وهم على إشراك بالله ، فما أحراكم بالملك وأنتم على إيمان به ؟ .. وإن كانوا سادوا العالم وهم على مجون ودعارة فما أحراكم بالسيادة وأنتم على تقوى وطهارة ؟

أيها المسلمون ، إن الحياة نعمة لا يستحقها إلا الشاكرون ، وما الشكر عليها إلا صمود لنوائب الدهر ، وبقظة لدسائس العدو ، وعمارة للأرض بنشر دين الله في أرجائها !

وداعاً أيها المسلمون ، فقد أضنى الأسى كبدي ، وقرح البكاء جفوني ؟ ..

وداعاً أيها المسلمون ، فسألني اليوم ربي اشكو إليه ذل التوحيد ، وعز الشرك ، واضطهاد الهدى ، وقسوة الاقدار ، وموت الضمائر . ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنَ فِي إِلَى اللَّهِ ﴾ !

قال رمضان : وأنت استودعك الله .

ثم مضى في طريقه وكأنما تقطعت نفسي على فراقه حشرات .

* * *

فلسفة العيد

بعد غد يحتفل العالم الاسلامي كله ببهجة العيد وسروره ، فتوزع الصدقات ، ويتزاور الأهل والأصدقاء ، ويلبس الناس الحديد والحميل من الثياب ... فما هو المغزى الاجتماعي والإنساني في العيد ، وكيف ينبغي أن تكون أخلاقنا فيه ؟

أما مغزاه الاجتماعي فهو : ما يضيفه على القلوب من أنس ، وعلى النفوس من بهجة ، وعلى الأجسام من راحة ، وهو ما يدعو اليه من تجديد أوأصر الحب بين الأصدقاء ، والتراحم بين الأقرباء ، والتعاون بين الناس جميعاً .

ففي العيد تتقارب القلوب على الود ، وتجتمع على الألفة ، وفي العيد يتناسى ذوو النفوس الطيبة أضعفانهم ، فيجتمعون بعد افتراق ، ويتصافون بعد كدر ، ويتصافحون بعد انقباض ، وفي ذلك كله تجديد للصلة الاجتماعية بين الناس على أقوى ما تكون حباً ووفاء وإخاء .

وفي العيد من المغزى الاجتماعي تذكير أبناء المجتمع بحق الضعفاء والعاجزين عليهم حتى تشمل الفرحة بالعيد كل بيت ، وتعم النعمة كل أسرة ، وإلى هذا المغزى الاجتماعي العظيم يرمز تشريع «صدقة الفطر» في عيد الفطر ونحر «الأضاحي» في عيد الأضحى ، فإن في تقديم ذلك قبل العيد أو أيامه اطلاقاً للأيدي الخائرة

في مجال الخير ، فلا تشرق شمس العيد إلا والبسمة تعلو شفاه الناس جميعاً ،
والبهجة تغمر قلوب أبناء المجتمع قاطبة .

أما المعنى الانساني في العيد ، فهو أنه يشرك أعداداً لا حصر لها من أبناء
الشرق والغرب بالفرح والسرور في وقت واحد ، فإذا بالإنسانية تلتقي على الشعور
المشترك بالغبطة ، وإذا بأبناء الأمة الواحدة على اختلاف ديارهم يشتركون في
السراء كما يشتركون في الضراء ، ففي العيد تقوية لهذه الروابط الفكرية والروحية
التي يعقدها الدين بين أبناء من مختلف اللغات والأقوام .

تلك هي بعض المعاني الاجتماعية والإنسانية في العيد ، ومن ثم كانت
الأعياد مظهراً واضحاً لهذه المعاني في كل مجتمع ، ومن أراد معرفة أخلاق الأمة
فليراقبها في أعيادها إذ تنطلق فيها السجايا على فطرتها ، وتبرز العواطف والميول
والعادات على حقيقتها ، والمجتمع السعيد هو الذي تسمو أخلاقه في العيد إلى
أرفع ذروة ، ويمتد شعوره الإنساني إلى أبعد مدى ، وذلك حين يبدو في العيد
متماسكاً متعاوناً متراحماً ، حتى ليخفق فيه كل قلب بالحب والبر والود ، ويذكر
فيه أبنائه مصائب إخوانهم في الأقطار الأخرى حين تنزل بهم الكوارث والنكبات ،
فما هو نصيبنا من هذه المعاني الاجتماعية الإنسانية في أعيادنا الحاضرة ؟ وما هو
واقع أخلاقنا الاجتماعية فيها ؟

لا شك في أن أعيادنا تتسم ببعض مظاهر التعاون الاجتماعي من صدقات
ومبرات للبيوت الفقيرة والعائلات البائسة ، ولكن ذلك إلى حد قليل بالنسبة لما
ينبغي أن يكون عليه ، وبالنسبة لمظاهر الترف والإنفاق الذي ننفقه على ملذاتنا .
في أسفارنا وولائمنا ، نكتفي بالعطاء القليل مع استطاعتنا أن نبذل الكثير ، وقل
أن نذكر بالعطاء من لا يذكرنا بنفسه . فالذين يتصدون للسؤال من المحتاجين هم
الذين يدفع لهم ما لا يقيم أودهم وأود أطفالهم ونسائهم . أما البيوتات المستورة التي
يحسب الجاهل أصحابها أغنياء من التعفف ، والذين تأبى عليهم كرامتهم أن
يتعرضوا لذل السؤال فهؤلاء يمر عليهم العيد بالحسرات ، دون أن ننتبه لهم ،

وقد يكونون من الصق الناس بنا ربحاً أو معرفة أو جواراً ، وليس هذا من المجتمع السعيد في شيء ، ويوم كانت أمتنا تتذوق طعم السعادة في مجتمعاتها ، كان الأخ يفكر في ليلة العيد بجاره قبل أن يفكر بنفسه ، ويقدم حاجة أولاد صديقه على حاجة أولاده .

حدث الواقدي - من كبار علماء القرن الثاني الهجري - فقال : كان لي صديقان أحدهما هاشمي ، وكنا كنفس واحدة ، فالتقي ضائقة شديدة ، وحضر العيد فقالت امرأتي : أما نحن في أنفسنا فنصبر على البأس والشدة ، وأما صبياننا هؤلاء فقد قطعوا قلبي رحمة لهم لما عليهم من الثياب الرثة ، فانظر كيف تعمل لكسوتهم .

قال الواقدي : فكتبت إلى صديقي الهاشمي أسأله التوسعة عليّ ، فوجه إلي كيساً مختوما فيه ألف درهم ، فما استقرّ في يدي حتى كتب إلي الصديق الآخر يشكو مثل ما شكوت إلى صديقي الهاشمي ، فوجهت إليه الكيس بختمه ثم أخبرت امرأتي بما فعلت فاستحسنته ولم تعنفني عليه ، فبينما أنا كذلك إذ وافاني صديقي الهاشمي ومعه الكيس كهيئته ، فقال لي : اصدقني عما فعلت بالكيس الذي وجهته إليك ، فعرفته الخبر فقال لي : إنك حين طلبت مني المال لم أكن أملك إلا ما بعثت به إليك ، ثم أرسلت إلى صديقي الثالث أسأله المواساة فوجه إليّ الكيس الذي بعثت به إليه ...

قال الواقدي : فتواسينا الألف درهم فيما بيننا : كل واحد ثلاثمائة ، ثم أخرجنا للمرأة مائة درهم ، ونمي الخبر إلى المأمون ، فدعاني وسألني فشرحت له الخبر ، فأمر لنا بسبعة آلاف دينار ، لكل واحد منا ألف دينار ، وللمرأة ألف دينار .

هذا هو التعبير الصادق عن سمو الاخلاق الاجتماعية في كل أمة ..

وما لا شك فيه أننا في الأعياد لا نذكر مصائب إخواننا الآخرين .. ففي وطننا السوري أنحاء ، كحوران مثلاً ، أصابها الجذب في مواسمها الزراعية ، والشح في مواردها المائية ، فانطلق أهلها في البلدان نساء ورجالاً وأطفالاً ، يطلبون العيش

الكفاف ، ويبغون الكسب الحلال . فهل ذكرناهم في نكبتهم ؟ هل تصورنا مدى ما يعانون الآن من حرمان وإهمال وعطش وجوع ؟ ..

وفي أنحاء من وطننا العربي ثورات وثورات تتأجج ضد الاستعمار والطغيان . حتى هدمت البيوت وشتت الأسر ، وأعمل الظالمون في جماهيرنا المكافحة يد الإبادة والإفناء ، وأبطال الكفاح من رجالنا هجروا الراحة وفارقوا النعيم ، ونازلوا الباغى المستبد في أوج قوته بالسلاح الضئيل والعدد القليل ، وما يزالون يخوضون معارك الفداء ، ليحرروا وطناً مستعبداً ، ويستردوا حرية سليبة . ويعيشوا كما تعيش كل أمة حية ، في ظل ظليل من الإنس والكرامة . فماذا قدمنا لهم من قبل ؟ وماذا ننوي أن نفعل لهم في مدة الأعياد ؟

أغلب الظن أن مظاهر أفراحنا بالعيد بعد غد ستكون نفس المظاهر التي اعتدنا أن نقيمها في كل عيد ، كأن دنيانا لا تمتلئ بالكوارث والارزاء ، وكأن أمتنا لا تقوم في بعض أجزائها مآتم الحزن على الضحايا الشهداء ، وأنا لا أريد من الناس أن يلبسوا ثياب الحداد في العيد ، ولا ذرف الدموع على شهداء الحق والحرية ، ولا الاعتكاف في البيوت كما يعتكف المرزوء بفقد حبيب أو قريب ، ولا الامتناع عن الطعام والشراب كما يمتنع الصائم ، أنا لا أريد شيئاً من هذا ..

ولكني أريد أن نظهر في أعيادنا بمظير الأمة الواعية التي لا يحول احتفاؤها بذكريات الحبيبة وأعيادها الدينية ... دون الشعور بمصائبها التي يرزح تحتها فريق من أبنائها ، أريد أن نقتصد في هوانا وسرفنا لنوفر من ذلك ما تحتاج إليه أمتنا في صراعها الدامي المرير .

أريد أن نشعر بالإخاء قوياً في أيام العيد فيبدو علينا في أحاديثنا عن نكبات لإخواننا وجهادهم بما يقوي العزائم ويبسط الأيدي بالبدل والفداء .

أريد أن نقتصد في ضحكنا فنبدو على وجوهنا مسحة من الحزن الكريم الوقور يتم على مبلغ عنايتنا بقضايانا . واهتمامنا بما يجري في وطننا الكبير من أحداث ونكبات .

أريد أن لا ننس فلسطين وطننا الجريح الذي يئن تحت أقدام الغزاة المتوحشين ، وأن لا ننس شعبنا المشرّد عنها تحت كل سماء يستجدي من الأمم خيمته ولقمته وكساءه ودواؤه ، وأن لا ننس مغربنا العربي المجاهد الذي ستهلّق عليه شمس العيد وهو يشيع الشهداء ويسعف الجرحى ويواسي المنكوبين ويستعد لنزال الطغاة والمستبدّين ، وأن لا ننس الأخطار التي تتهدّد أمتنا في شتى أقطارها من مؤامرات للاستعمار ، وقضاء على الحرية ، واضطهاد للأحرار ، واغتصاب للثروة التي تذهب إلى جيوب المستعمرين لتزيد في ترفهم ومجونهم وقوتهم على حساب شعبنا الفقير المسكين .

أيها الأخ الكريم :

لا شك أنك تستعد للعيد ، أباً كنت أو أمّاً ، زوجاً أو زوجة ، شاباً أو فتاة ، ولا شك في أنك تعمل على كل ما يستلزمه العيد من لباس وأكل وهو ، فأضف إلى استعدادك لمستلزمات العيد استعداداً آخر أكرم عند الله ، وأجدر في نظر الإخوة والمروءة ، هو استعدادك للتفريج عن كربة من حولك من البؤساء والمعدمين ...

فتش عن جارك أو قريبك أو أبناء شعبك واسأل عن حاجتهم ، وأعنهم في إدخال السرور على قلوب أولادهم ونسائهم ، إفعل ذلك فإن لم تستطعه فأسعفهم بالكلمة الطيبة ، والابتسامة الحانية ، والخفقة الطاهرة من قلبك المؤمن ، واذكر مع هذا كله إخوانك في دنياك التي تفيض بالآلام .

واذكر في صبيحة العيد وأنت تقبل أولادك وتأنس بزوجك ، ويجمع شملك على الطعام الطيب والشراب البارد ، أذكر يتامى لا يجدون في تلك الصبيحة ابتسامة الأب ، وأيامى لا يجدن حنان الزوج ، أذكر جموعاً شردها الاستعمار والطغيان فاذا هي في أيام العيد تشرق بالدمع ، وتكتوي بالنار ، وتفقد طعم الراحة والأمن والاستقرار ..

اذكر هذا كله ، أي اذكر نفسك ، فأنت حين تأسو جراح إخوانك إنما تأسو جراحك ، وحين تسد حاجة جيرانك إنما تسد حاجتك أنت . وصدق الله تعالى إذ

يقول: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفُسِكُمْ﴾^(١) ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾^(٢) وبروحي ﷺ ما أعظمه وأعظم تعليمه الناس الحب والخير والتعاون حين يقول : « من فرج عن أخيه كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » « والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه »^(٣) « من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم »^(٤) « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر »^(٥) .

اللهم أوزعنا أن نشكر نعمتك ، وأن نقوم بحق الإخوة علينا من عون وإسعاف ، وأن نستجيب لندائك في البذل والفداء . لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك ، لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

* * *

(١) سورة البقرة : ٢٧٢ .

(٢) فصلت : ٤٦ .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه الحاكم .

(٥) رواه مسلم وأحمد .

القِسْمُ الثَّالِثُ

- ١ - ذكرى الاسراء والمعراج في تاريخنا .
- ٢ - ليلة النصف من شعبان .

ذكرى الأسراء والمعراج في تاريخنا

من أعظم الذكريات التاريخية مكانة في تاريخ الإسلام وأكثرها احتفاء من قبل المسلمين ، هي هذه الذكرى التي نخيئها الليلة ، ذكرى الأسراء والمعراج . ففي هذه الليلة يجتمع المسلمون في شتى أنحاء العالم في بيوت الله يتلون تفاصيل هذا الحادث المعجز الذي وقع لرسولهم ﷺ قبل أربعة عشر قرناً ، ويتأملون ما فيه من العبر والعظات ، ويتذكرون عناية الله برسولهم الكريم ، ويعاهدون الله على أن يتجردوا من كل خلق ذميم ، وأن يتصفوا بكل سجية حميدة ، ويجددون بيعتهم لله ، ووفاءهم لرسوله وثباتهم على دينه .

ولا يعني في هذا الحديث أن نبرهن على وقوع الأسراء تاريخياً وإمكانه عقلياً ، فالناس فريقان : فريق لا يؤمن بالله ولا بما وراء الطبيعة وهؤلاء لا ينفع الكلام معهم في الأسراء والمعراج قبل أن يقتنعوا معنا بوجود الله ورسالات الأنبياء ، وفريق يؤمن بالله والرسالات ، وهؤلاء—إن كانوا من غير المسلمين—فقد حفلت كتبهم الدينية بمعجزات كثيرة للأنبياء والرسل ، فلا يصح لهم إنكار الأسراء والمعراج ، وهم يؤمنون بما هو أكثر بعداً عن تصور العقل من معجزات وخوارق للطبيعة . وإن كانوا من المسلمين فحسبهم أن القرآن سجل هذه الحادثة بوضوح في قوله تعالى : ﴿سَبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ

الأمّصَى الذي بارَكنا حولَه لِسرِيَهْ من آياتنا ﴿ كما أشار في حادثة المعراج في الآيات التي تبتدئ بقوله : ﴿ والنجم اذا هوى ، ما ضلَّ صاحبُكم وما غوى وما ينطقُ عن الهوى ، إنَّ هُوَ الا وَحي يُوحي . علّمَه شديدُ القوى ذو مرّة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدكّى فكان قابِ قوسين أو أدنى ﴾ إلى آخر الآيات .

إنّما يعنيّنا في هذا الحديث أن نستفيد من هذه الذكري في واقعنا الحاضر ، وأن نتذكّر ما يرتبط بها من أحداث وقعت في تاريخنا القديم والحديث ..

كان العرب عند مبعث رسول الله ﷺ منقطعين عن العالم الخارجي إلا قليلا ، بعيدين عن المشاركة في تاريخه وأحداثه السياسية والاجتماعية ، مشتبين داخل جزيرتهم ، لا يفكرون يوماً أن تقوم الوحدة بينها وبين البلاد التي تجاورها كمصر والعراق والشام ، ولا يعلمون من أسرار الكون إلا أرضهم ورمالها وجبالها وسهولها .

والألوهية عندهم تتجسد في أصنام من صنع أيديهم ، إليها يتجهون بالعبادة والدعاء ، وعندها ينتهي الأمل والرجاء . هكذا كانوا حين جهر الرسول صلوات الله وسلامه عليه بدعوته ، وهي تقوم على الإيمان بإله واحد ، خالق الكون والحياة ، وعلى النظر في أسرار الكون وبدائعه وعجائبه ، وعلى اتخاذه العلم والعقل أساساً للنظريات العلمية والاجتماعية والسياسية . ومع أن رسالة الإسلام كانت تدعوهم إلى إصلاح أوضاعهم الدينية والاقتصادية ، فقد كانت تشعرهم أن القدر قد اختارهم لمهمة كبرى ، من أكبر المهمات التي تحملتها أمة في التاريخ إلى شعوب الأرض ..

تلك هي رسالة الانعتاق والتحرر والعلم والحضارة على أثاث ثابت من الإيمان والعقل والخلق الكريم .. وبينما كان رؤساء قريش يتفانون في تكذيب الرسول ومحاربة دعوته ، وقعت حادثة الإسراء والمعراج من الأرض إلى السماء : الإسراء من مكة إلى بيت المقدس ، والمعراج من الأرض إلى السماء . وصعقت قريش لهذا النبأ .. إن بين مكة وبين بيت المقدس مسافة شهر على الراحل ، فكيف يقطعها

محمد في ذهابه وإيابه ؟ .. وإن الانسان ليستطيع أن يتجول في أنحاء الارض أما السماء ، فما إليها سبيل . فكيف يصعد إليها محمد ثم يعود منها في ساعات ؟....

وما لمكة وبيت المقدس ؟ وما هي الصلة بين الكعبة والأقصى ، أليست الكعبة عند هؤلاء هي كل ما في الأرض من معابد ؟ وما هي الصلة التي تربط بين سكان مكة وسكان بيت المقدس ؟ أليس سكان مكة أشرف أمم الارض لأنهم حراس الكعبة وسدنتها ؟ فما حاجتهم إلى الشعوب الأخرى وما صلتهم بها ؟ ..

إنه التفكير الضيق المادي الوثني الجاهلي .. فلم يستطع يومئذ أن يفهم المغزى ، ويستنبط الحكمة ، ويستشف حجب الغيب فيرى من خلال هذه الحادثة من أحداث المستقبل ووقائعه التي كتب لها الله في تاريخ هذه الأمة أن تكون .

لقد كان رسول الله ﷺ يعلم أن قومه سيكذبونه ويهزؤون به حين يقص عليهم نبأ هذه الرحلة المعجزة ، ولكن صاحب الرسالة لا يبالي بهزء الجاهلين وإعراض المكذبين ، ما دامت الرسالة تمشي قدماً نحو أهدافها المقدرة لها ، وما دام هؤلاء الساخرون والمكذبون سيعرفون نبأ هذا الحادث بعد حين ، ولو بعد وفاة الرسول الأمين .

وصدّق رسول الله من صدقه يومئذ من المؤمنين الثابتين ، وكذب به من كذبه ، وارتد عن دينه من ارتد من المكابرين والجاهلين .. وتمضي السنوات بسرعة ، فإذا بهؤلاء الذين كذبوه وسخروا منه يوم قص عليهم إسرائه إلى بيت المقدس ، يقفون بأنفسهم على أبواب المقدس يدقون أبوابها فأنحين ، ثم إذا هم ينطلقون من بيت المقدس شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً ، ليضموا الشام ومصر والعراق في مملكة واحدة تنبعث منها جيوشهم إلى أنحاء الدنيا مهذبة فاتحة محررة .

هذه أول أنباء المعجزة الخالدة من قصة الاسراء ، وهذا هو أول تفسير واقعي وسياسي لمغزاها الكبير العميق .

ثم يمضي التاريخ مسرعاً.. فاذا جيوش الصليبيين الغربيين تدق أبواب بيت المقدس

وإذا بالمذابح تجري أنهاراً في شوارعها ومسجدها الأقصى .. وإذا هي عاصمتهم الدينية لمدة تقرب من مائة سنة ..

ثم يمضي التاريخ فإذا صلاح الدين الأيوبي يدق أبواب بيت المقدس مرة أخرى ، ويستولي عليها فلا يراق دم ، ولا تهتك حرمة ، ولا يخفر عهد .. وتظل بيت المقدس وفلسطين كلها تحت حكم العرب والمسلمين ، وتظل معابدها وكنائسها أمانة يحسنون القيام عليها والحفاظ على حرمتها ، حتى تدخلها جيوش الحلفاء في الحرب العالمية الأولى ، ويقول القائد الانكليزي (النبّي) قوله المشهورة : « الآن انتهت الحروب الصليبية » ...

يقول ذلك وهو يظن أنهم انتزعوها إلى الأبد من أيدي أصحابها العرب والمسلمين .. ويأبى الانكليز أن يخرجوا من فلسطين إلا أن يدعوا وراءهم «إسرائيل» قائمة في قلب البلاد العربية تغمرها روح الشر والبغي والعدوان ..

وها نحن ما نزال في صراع مرير دائم مع إسرائيل .. وها هي قصة المسجد الأقصى وبيت المقدس وبلد الاسراء والمعراج ما نزال قائمة بفصولها الدامية لم تنته بعد ..

فهل عرفنا السر في حادث الاسراء ؟ وهل أدركنا الآن أي مغزى عظيم قد انطوى عليه هذا الحادث المعجز ؟ وكم فيه من بشائر ونذر لنا نحن العرب والمسلمين ؟

لقد ربط حادث الاسراء ما بين بيت المقدس خاصة وبلاد الشام عامة ، وبين جزيرة العرب قبل أن تكون بلاد الشام عربية مسلمة ، ووصل رسول الله في إسرائه ما بين حدودها الروحية قبل أن تتصل حدودها الأرضية ببضعة عشر عاما .. ووضع رسول الله بهذا الاسراء أمانة عظيمة في أعناقنا نحن العرب والمسلمين : أن نحفظ بهذه الارض كجزء لا يتجزأ من وطننا الكبير ، وأن لا نسمح للغزاة المفسدين بانتزاع شبر من أرضها ما دمتنا أحياء ، وأن ندافع عنها بكل ما نملك من قوة ، وأن نعتبر الدفاع عنها واجباً يحتمه الدين والعقيدة ، لا مفر لكل من يؤمن.

بالله واليوم الآخر من القيام به إلى آخر مدى من القدرة والاستطاعة .

وبعد ، فهذه هي الذكرى نحتفل بها اليوم ، ومعركتنا مع إسرائيل والدول الاستعمارية في أوجها وعنقها .. إسرائيل التي احتلت عام ١٩٤٨ أخصب أراضي فلسطين وأجملها وأحفلها بالثروة والذكريات .. وشردت من سكان فلسطين مليوناً من الشيوخ والنساء والأطفال والشباب والبنات .. وإسرائيل التي احتلت غزة وشرم الشيخ وقتلت آلافاً من أبنائها ، وسجنت آلافاً وشردت آلافاً ، وهي تأبى اليوم أن تخرج ، متحدية أمم العالم أجمع ، وما كان لها أن تقف هذا الموقف الذي لم تستطع دولتا الغدر والعدوان (فرنسا وإنجلترا) أن تقفا مثله وهما أقوى منها مالاً ورجالاً ونفوذاً ، لولا أن هذه الدول الاستعمارية من ورائها تشجعها على هذا التحدي المؤلم ، وتغريها بالوقوف إلى جانبها والدفاع عن عدوانها .

إن إسرائيل بهذا الموقف تلقي عن وجهها الأسود قناع الخداع والتضليل ، وتكشف عن نواياها العدوانية نحو البقية الباقية من فلسطين وما جاورها من مصر والأردن وسورية .. هذا هو الجو القائم الذي تعود فيه ذكرى الإسراء إلينا هذا العام لتذكركنا بالمعركة وتكاليفها وأعبائها .. ولتذكركنا بالواجب الملقى على أعناقنا نحن العرب والمسلمين نحو هذه البلاد المقدسة التي اجتمع فيها من ذكريات الإسلام والمسيحية ، ما لم يجتمع مثله لجزء من أرض الوطن العربي الفسيح .

ولو أن هذه الذكرى العظيمة كانت لأمة مثل أمتنا في وضعها وصراعها مع الطغيان والظلم والاحتلال لاستفادت منها إلى أبعد حدود الاستفادة للدعاية لقضيتها ، ولحشد القوى الروحية والمادية ، واستثارة المشاعر والعواطف للدفاع عنها..

فلماذا لا نفعل ذلك الآن ؟ لماذا لا نستفيد من ذكرى الإسراء والمعراج في شرح قضيتنا من جديد للعالم الاسلامي كله لتذكيره بهذا الجزء الغالي من أرضنا الحبيبة ؟ لماذا لا نستفيد من هذه الذكرى لاستثارة العواطف الدينية والقومية في شعبنا العربي مسلمه ومسيحيه ؟ ! ... إن ذكرى الإسراء إلى بيت المقدس في أرض فلسطين دون غيره من أجزاء الأرض ، والمسجد الأقصى يجاور كنيسة القيامة أكبر

كنيسة وأقدمها لدى مسيحيي العالم كما يجاور بيت لحم مهد المسيح ومهوى أفئدة
المسيحيين في العالم .. أفليس من شأن هذه الذكرى أن تستثير شعورنا جميعاً نحو
هذا الجزء المحتل من الدنيا العربية التي تكافح اليوم في سبيل التحرر والوحدة
والاستقلال ؟

إن من حق هذه الذكرى علينا أن نتخذ من أيامها موسماً تهرع فيه الجماهير
إلى بيت المقدس لتزور أماكنها وذكرياتها التاريخية ، وتنطلق إلى الحدود لتشهد ما
يثيرها من وضع الأعداء وعدوانهم المتكرر ، وهي مناسبة لأن تقام في بيت المقدس
أروع الاحتفالات والمهرجانات لتقوية عزائم سكانه المرابطين على حدود الأعداء
وهم تحت مرامي قنابلهم وطائراتهم ، كما أن من حق هذه الذكرى أن تعتبر عيداً
قومياً ، تقام فيه المهرجانات في كل بلد وكل قرية في دنيا العرب والاسلام
للتحدث عن فلسطين وتاريخها وذكرياتها .

إنها مناسبة من أقوى المناسبات لتجديد روح النضال والكفاح في أبناء أمتنا
ما دامت معركتنا مع الاستعمار قائمة على أشدها ، وما دامت قوى الشر تسلك كل
سبيل لكبت أنفاس الحرية في صدورنا ، وما دامت الصهيونية العالمية تستثير شعور
الغربيين جميعاً ضدنا بأكاذيبها وأباطيلها ، فلماذا لا نجند قوى العرب والمسلمين
جميعاً لهذه المعركة؟ ولماذا لا نتخذ من هذه الذكرى مهمازاً يجدد فينا العزائم،
ويذكرنا بالواجبات الثقيلة والتضحيات الغاليات ؟

إن فيما صنعتته الإذاعات العربية في كل من القاهرة ودمشق وعمان هذا
العام ، من نقل برنامج الاحتفال بذكرى الإسراء في المسجد الأقصى إلى جميع
أنحاء العالم لبادرة طيبة من بؤادر الوعي ؛ تدل على أننا قد بدأنا نستفيد من هذه
الذكرى ونقدرها حق قدرها ، فهل لنا أن نطمع في المزيد من هذه العناية ؟ وأن
نرى في العام القادم ذكرى الإسراء والمعراج تهرز العالم كله بأحاديثنا واحتفالاتنا
وتصميمنا على استرداد الوطن السليب ؟

أيها العرب والمسلمون .. لقد كان يوم ٢٧ رجب في عهد رسول الله ﷺ

يوم الفتح الروحي لبيت المقدس ، ثم كان يوم ٢٧ رجب عهد صلاح الدين الأيوبي. يوم الفتح العسكري لبيت المقدس واستردادها من أيدي المغتصبين ، فاذكروا دائماً هذا اليوم ، واجعلوا منه مبدء الانطلاق لتحرير الجزء المحتل من فلسطين الغالية. ولتحرير الأجزاء المحتلة في الوطن العربي الواحد، ولتحرير العالم الاسلامي كله من آثار الاستعمار والاستغلال والعدوان .

﴿ سبحانَ الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي بارَكنا حوله لنُريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾^(١).

(١) وكان الاستاذ المؤلف (رحمه الله) قد جاهد مع البررة من إخوانه قبل هذا المقال دفاعاً عن بيت المقدس ببطولة شهد بها العدو قبل الصديق .

« والفضل ما شهدت به الأعداء »

رد الله بيت المقدس وسائر المفقود من بلاد المسلمين الى أهلها . وكتب للمسلمين الاستجابة لنداء هذا القائد (رحمه الله) للجهاد في سبيل الله .
(الناشر)

ليلة النصف من شعبان

هذه ليلة النصف من شعبان .. وفيها اعتاد المسلمون أن يقوموا بأنواع من العبادة من صلاة ودعاء وقيام ، ولها دعاء مشهور يجتمع عليه المسلمون في المساجد والبيوت ، ما أزال أذكر وأنا صغير ، كيف كان والدي يجمعنا في البيت بعد صلاة المغرب ، نجتمع حوله في حلقة واحدة نقرأ القرآن ، وندعو بالدعاء المشهور ، ونحن لا نفهم مما يدعو شيئاً أكثر من أن نردد معه ألفاظه وجملته ، غير أننا كنا نشعر بالرهبة والخشوع ، ونشعر مع ذلك بلذة اجتماع العائلة الواحدة في وقت واحد ، يلف رب الأسرة وربتها وأبناءها جميعاً برداء قدسي من الحب والصفاء ، ويضفي عليها من خشوع العبادة ما نحس نحن الصغار بوجوده في أنفسنا ، وإن لم ندرك معناه في عقولنا .

وقبل أن أفيض في فضل هذه الليلة والحكمة من هذا الموسم ، أجد — من الأمانة التي طوق الله بها رقاب أهل العلم ، حين أخذ عليهم أن يبينوه للناس ولا يكتموا ، أن أذكر الحكم الشرعي فيما يفعله الناس ويقرؤونه من صلاة ودعاء ، فلم يثبت عن رسول الله ﷺ أنه جمع الناس في المسجد في مثل هذه الليلة على دعاء أو عبادة ، ولا أثر مثل ذلك عن صحابة رسول الله ﷺ . وكل ما ورد من ذلك ، أحاديث في فضل قيام هذه الليلة وصيام نهارها .

من ذلك ما رواه ابن ماجه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا كانت ليلة نصف شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها » . وروى البيهقي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها : « هذه ليلة النصف من شعبان ، إن الله يطلع على عباده في ليلة النصف من شعبان ، فيغفر للمستغفرين ، ويرحم المسترحمين ، ويؤخر أهل الحقد كما هم » . وفي مثل هذا المعنى أحاديث متعددة ، وإن لم يبلغ واحد منها درجة الصحة التي لا مجال فيها ، إلا أنها تتوارد على معنى هو من فضائل الأعمال . وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى الأخذ بالأحاديث الضعيفة في فضائل الأعمال ..

أما الدعاء المشهور الذي يتلوه المسلمون في المساجد والبيوت ، فلم يثبت عن رسول الله ﷺ ولا عن أصحابه ولا عن السلف الصالح ، أنهم اجتمعوا في المساجد والبيوت من أجله في هذه الليلة ، ولم يعرف من وضع هذا الدعاء ، سوى ما نقل عن بعض الصالحين من فقرات منه ، بل في بعض عباراته ما لا يجوز على الله ، كنسبة المحو والإثبات إليه ، والآية التي تذكر في هذا الدعاء ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ ليس كما فهمها من وضع الدعاء ، أو كما يفهمها عامة المسلمين .

وصفوة القول : إن لهذه الليلة فضلا ثبت في بعض الأحاديث ، وإن المسلم يستحب له فيها الاتجاه إلى الله بالدعاء ، وإحياء ليلتها بالعبادة كما يستحب له صيام نهارها ، وخير الدعاء وأحبه إلى الله ، ما ورد لفظه في القرآن والسنة ، ففي القرآن أدعية يستحب الدعاء بها ، وفي السنة أدعية أثرت عن النبي ﷺ : فليستكثر منها المسلم ، وليحرص عليها في مثل هذه المناسبات .

أما الحكمة من تخصيص هذه الليلة بالفضل ، والتنويه بشأنها ، والترغيب في صوم نهارها ، فإن من عادة الله في عباده ، أن يتعهدهم بالتأديب فترة بعد فترة ، وأن يهيء لهم وسائل التطهر من أدران المادة وأوزار الحياة ، كلما طال عليهم الأمد ، وبعدت منهم النجعة ، فتجيء مثل هذه المواسم كفترات استراحة وعمل ... استراحة من أعمال الحياة التي ترهق الجسم والروح ، واستراحة من الأوزار والذنوب ،

وعمل لتطهير النفس وتركيبتها ، وتجديد الايمان وتقويته ، وما أحوج هذه الانسانية الغارقة في الشهوات ، الممعة في اللذات ، التاركة لشرائع الله وآدابه ، إلى وثبات روحية تجدد صلة الانسان بربه وتذكره بعهده ، وتلطف من أخلاقه التي قسا بها على الناس واعتدى وظلم .

وشيء آخر في ليلة النصف من شعبان ، وهو أنها تنبه المسلم إلى اقتراب شهر رمضان ، ورمضان شهر التقوى والصالح ، وشهر العبادة والطاعة ، وشهر الجود والإحسان ، فليصم المسلم يوم النصف ليتهاياً لصوم رمضان ، وليقم ليلة النصف ليتهاياً لإحياء ليالي رمضان ، وليستغفر ربه في هذه الليلة حتى يستقبل رمضان بنفس مؤمنة ، وروح مشرقة ، وفؤاد مطمئن إلى ثواب الله وحسن لقاءه .. هذا هو فيما أعتقد بعض أسرار مثل هذه المواسم الدينية ، التي يستحب فيها الدعاء والصلاة والعبادة .. وهي كلها مطهرات للنفس ، مكملات للأدب ، باعثات على سمو الروح وطهارة الفؤاد .

أما بعد .. ما أحوجنا إلى مثل هذه الليالي ، وقد أغرقنا الذنوب ، ولوثت المعاصي ! ما أحوجنا إلى مثل هذه الليلة بعد أن قست منا القلوب ، وشحت الأيدي ، وعميت الأبصار ، وانحرفنا عن سنن الخير كما يريد الله ورسوله ! ما أحوجنا إلى مثل هذه الليلة وقد داهمتنا الخطوب ، وتالت المصائب ، وتألب علينا الأعداء ، وتمصر في أرضنا الأذلاء ، واستنسر في وطننا البغاة ! .

ما أحوجنا في هذه الليلة إلى أن نفىء إلى الله ، ونرجع إلى الحق ، ونظهر قلوبنا وأرواحنا ، ونحاسب نفوسنا على ما فرطت في جنب الله حتى أضعنا المجد ، وفرت منا الدنيا والدين ! .

أيها المؤمنون ! يا أبناء هذه الأمة الكريمة !

في أوقات الشدة تخلص الأمم الراغبة في النجاة إلى مسالك النجاة ، وتمسك بوسائلها وأسبابها . ونحن اليوم في محنة وشدة ، العدو واقف على حدودنا وفي قلب وطننا الكبير ، ينتظر فرص الغدر والإجرام . وأنتم تعلمون ما وراء غدر

العدو حين ينتصر... من خراب الديار ، وتشتت الأحباب، وتفرق الأسر ، وليس لنا من وسائل النصر عليه إلا القوة نلوذ بها لنصد غدر الغادرين ..

والقوة في الاسلام نوعان : قوة الحديد والنار ، والتسلح والاستعداد ، هي التي أمرنا الله بها في قوله ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهي التي أمرنا بها رسول الله ﷺ في قوله : « من قاتل فليقاتل بمثل ما يقاتل به » وهي القوة التي فرطنا فيها فأصبحنا أضعف أمة ، وقد كان ينبغي لنا أن نكون أقوى أمة على وجه الأرض ...

والقوة الثانية هي قوة الروح والأخلاق .. هي قوة الرجولة والاستقامة ، هي قوة الطاعة والعبادة ، هي قوة الصلة بالله ، والاعتزاز بقوته وجبروته ... هذه القوة التي يعبر عنها اليوم بالقوة المعنوية للجيش والأمم ، ويرونها ألزم شيء للأمة المحاربة وللجيش المحارب ، وهي التي حققت لأمتنا النصر في تاريخها الذهبي ، وإنكم لتعلمون ، أن امتنا خرجت من جزيرتها ، لا تملك من السلاح مثل ما كانت تملكه الأمم الكبرى يومئذ كفارس والروم ، وليس عندها من وفرة الرجال والمقاتلين ما كان لتلك الدول من جيوش ومحاربين ، ومع ذلك فقد حققت من النصر ما لم يكن يحلم به التاريخ ، وخلدت من الآثار ما لم تخلده أمة على وجه الأرض ، وانتشرت في المشرق والمغرب بسرعة أذهلت علماء التاريخ ، ولا يزال الناس في حيرة من أمر هذا التوسع العجيب في ذلك الأمد القريب .. وليس في الأمر سر عندنا ولا معجزة .. وإنما هو قوة الروح والعقيدة تحمل أصحابها على جناح النصر ، فاذا هم في مثل سرعة البرق ينتصرون وينتشرون ..

أما أتاكم نبأ القادسية ، وموقف وفد المسلمين من رستم قبل المعركة ؟ لقد حشد رستم كل ما يملك من مال وسلاح وذهب وحرير ، وأحاط نفسه بالعبيد مدججين بالسلاح ، وبالقادة موشحين بسيوف الذهب ، وبالوزراء متوجين بالدر والياقوت ، وفرش أرض الإيوان بالإستبرق والحرير ، وجلس على

كرسي مرصع بالؤلؤ والمرجان ، ليستقبل وفد العرب المقاتلين ، وظن هو ومن معه ، أن هؤلاء قوم أخرجتهم من ديارهم الحاجة الملحة والفقر المدقع ، فإذا رأوا الذهب يخطف الأبصار ، والحرير يملأ الإيوان ، والغنى تطفح به وجوه فارس ، انهزمت نفوسهم قبل أن ينهزم سيوفهم .

هكذا ظن رسم ، وبعض الظن لاثم ، حتى إذا وصل وفد المسلمين إلى الإيوان ، ورأوا ما حشد لهم رسم من ذهب وحرير وعبيد وأعوان ، قال قائد الوفد لمن معه : إفعلوا مثل ما أفعل .. ودخل الإيوان ومن معه يطؤون الحبر بسنابل خيولهم ، ويهزؤون من الجمع بعزة إيمانهم ، فلما وصلوا إلى رسم نزل القائد ونزلوا ، وانتزع الوسائد من تحت يد رسم ووزرائه وقواده ، فشقوها مرطاً ربطوا بها الخيول في أعمدة الإيوان ، حتى ظن الجاهلون أن هذا تأخر وهمجية ، ولكن التاريخ كان يتهاى ليقول : بل هذا فاتحة النصر وأول الخلود ..

ثم قال رسم لقائد وفدنا ^(١) : .. ما حملكم على أن تخرجوا من دياركم وتطمعوا في غزو ديارنا ؟ لئن كان الجوع هو الذي أخرجكم فنحن نطعمكم حتى تشبعوا ، ولئن كان العري ، فنحن نكسوكم حتى تكتفوا ، ولئن كان الفقر ، فنحن نعطيكم حتى تغتنوا ..

وأجاب قائدها : ... كلا .. ما نحن بالذين يهزنا إلى المعارك جوع البطون ، ولا فقر الأيدي ، ولا قلة الزاد والكساء .. ولقد رأيتم أننا وطئنا حريركم بخيولنا ، وربطناها بما تفتخرون به من وسائد موشاة بالذهب والفضة .. إنما خرجنا لنبلغكم رسالة الحق ، وننقذكم من الظلمات إلى النور ، ونحرركم من العبودية لغير الله . فإن آمنتم كانت دياركم لكم لا نرزؤكم في شيء منها أبداً .. واستكبر رسم ومن معه ، واعتزوا بالباطل وما يجمعون ...

واعتر قائدها بالحق وما يؤمنون ، ثم كانت المعركة بعد ذلك ، وكان

(١) هو ، ربيعي بن عامر - رضي الله عنه -

النصر، للذين لقوا أعداءهم الأغنياء، بنخيول غير مسرجة، وإبل غير مكسوة،
وثياب غير جديدة ولا جميلة، وسيوف ملفوفة بالخرق البالية. كان النصر
للذين توجوا رؤوسهم بعزة الله وملئوا قلوبهم بوعد الله، ولبسوا في نفوسهم
أنبل معاني الكرامة والسمو والخلق العظيم ..

يا أبناء هذه الأمة ! ..

هذان طريقا النصر ووسيلتاها : نار ونور ، حديد وخلق ، سيف وإيمان ،
مادة وروح .. فذكروا هذا وأنتم في قلب المعركة ، لم تنته ولم ينهزم أعداؤكم
بعد ..

أيها المؤمنون ..

في هذه الليلة تتجه الدعوات إلى الله ، ويذكر كل منكم نفسه وأهله ،
يطلب لهم المغفرة والرزق .. ولا بأس أن يذكر الإنسان نفسه ، ولكن القبيح
أن يذكر نفسه وينسى أمته ووطنه .. فإذا اتجهتم إلى الله بالدعاء في هذه الليلة ،
فاتجهوا إليه بقلوب التائبين ، ونفوس المخلصين ، ثم اذكروا مع أنفسكم وقبل
أنفسكم أمتكم وبلادكم .. اذكروا في هذه الليلة وطنكم المعتدى عليه ،
اذكروا فلسطينكم الجريحة ، اذكروا جيشكم الباسل ، اذكروا مستقبل
أمتكم وبلادكم .. اذكروا هذه المعركة القائمة ثم اسألوا الله النصر فيها ..

أيها المؤمنون !

إني داعٍ فأمِنُوا .. واستحضروا في هذه اللحظات خشية الله في قلوبكم .
فإن أبواب السماء مفتحة لتقبل دعاء الخاشعين التائبين ..
اللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى .
اللهم إنا نعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحول عافيتك ، وفجأة نقمتك ،
وجميع سخطك .

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا من كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر .

اللهم إنا نسألك منازل السعداء ، وكرامة الشهداء ، والنصر على الأعداء .
اللهم اجمع كلمتنا على الهدى ، وأمرنا على الخير ، ووفقنا للمجد والخلود .
اللهم عليك بأعدائنا فإنهم لا يعجزونك ، اللهم شتت شملهم ، ونكس أعلامهم ، واجعل الدائرة عليهم ، واضرب بعضهم ببعض ، وانزل عليهم غضبك ، وانصرنا عليهم نصر المؤمنين المجاهدين .
ربنا هب لنا من لدنك رحمة ، وهيء لنا من أمرنا رشداً .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * *

فهرست

الصفحات

٥

..... المقدمة

القسم الاول

١٠ - ٩ آيات الصيام
١٧ - ١١ أحاديث الصيام
١٩ - ١٨ أحاديث العيد
٢٢ - ٢٠ هديه ﷺ في الصيام والعيد
٢٥ - ٢٣ أحكام الصيام
٢٧ - ٢٦ صدقة الفطر

القسم الثاني

٣٧ - ٣١ الوافد الحبيب
٤٥ - ٣٨ رمضان شهر الحق

الصفحات

٥٢ — ٤٦	رمضان شهر القوة
٦٠ — ٥٣	رمضان شهر الحرية
٦٤ — ٦١	فلسفة الصيام وأسراره
٦٨ — ٦٥	رمضان شهر المواساة
٧٢ — ٦٩	أثر العبادة في تربية الامة
٧٧ — ٧٣	مؤسسة الزكاة
٧٨ — ٧٨	رمضان يتحدث
٩١ — ٨٨	رمضان يودع
٩٧ — ٩٢	فلسفة العيد

القسم الثالث

١٠٧ — ١٠١	ذكرى الاسراء والمعراج في تاريخنا
١١٤ — ١٠٨	ليلة النصف من شعبان

* * *